

مجله علمی و ادبی
تصویرهاست از انوار

فی کل شهر عربی

ماعدہ شہری الحر الشدید

التاسع والعاشر	٦٨، ٦٩ رمضان وشوال سنة ١٣٦٥	المجلد السابع عشر
----------------	-----------------------------	-------------------

مرکز تحقیقات کامپیوتر علوم اسلامی

مدير إدارة المجلة ونمحيوها

مُحَمَّدٌ رِجَالُكَ

الادارة	الاشراكات همه منه
ميدان الازهر	داخل القطر ٢٠٠
تليفون : ٤٤٣٣٢	لطلبة الجامعة الازهرية خاصة ... ١٠٠
الوسائل تكون باسم مدير الجهة	خارج القطر ٣٠٠

ثمن الجزء الواحد ٢٠ ملياً داخل القطر و ٣٠ خارجه

(مطبعة الأزهر - ١٩٤٦)

فهرس

الجزءين التاسع والعاشر - المجلد السابع عشر

الموضوع	صفحة
رسالة المليك الى شباب الوادي	٣٨٥
يوم العلم في قصر رأس التين	٣٨٦
ما أفاده الاسلام للمدنية	٣٩١ بقلم
الوصافة بالجوار والمرأة	٣٩٤ فضيلة الأستاذ الشيخ طه الساكت
التأليه العقلي	٣٩٨ حضرة الأستاذ الدكتور محمد غلاب
الصوم والتربية	٤٠١ فضيلة الأستاذ عبد الجليل شلبي
بحث في مقارنة القوانين الوضعية	٤٠٤ صالح بكير
لا، بل تحتاج الاسلامية الى دعاة	٤٠٧ الشيخ علي محمد حسن
زين الشباب	٤١٠ كامل محمد عجلاوي
لغويات	٤١٥ محمد النجار
خالد بن الوليد	٤١٩ صادق مرجون
العلامة المراغي شيخ الأزهر	٤٢٣ سعادة الأستاذ محمد كرد علي بك
كلمة	٤٣٤ صاحب العزة عبد السلام ذهني بك
الاسلام والعمل	٤٣٨ فضيلة الأستاذ حسين المعصرى
الخطابة في الأندلس	٤٤٢ أحمد الشرباصي
الأشعار الأندلسية	٤٤٧ سليمان الأفاقي
علوم القرآن	٤٥٢ حسن حسين
أبو ذر الغفاري	٤٥٥ حضرة الأستاذ سعيد زايد
عرض لكتاب الأستاذ الامام محمد عبده	٤٥٧ محي الدين رضا
مذكرة حول التعليم الديني	٤٦١ جبهة علماء الأزهر
العدالة في الاسلام	٤٦٣ فضيلة الأستاذ احمد علي منصور
الصنيع البديعي	٤٦٧ الشيخ أحمد موسى
النقد الادبي	٤٧٠ محمد عبد المنعم خفاجي
عبيد الشعر في العصر الجاهلي	٤٧٣ رياض هلال
هل من جديد في الأزهر	٤٧٦ حضرة الأستاذ الأب قنواي



رسالة الملك إلى شباب الوادي

يا شباب الوادي :

أحييكم يا مناط الأمل ومعقد الرجاء ، وما كان للشباب هذه القيمة ،
إلا لأنه الفصل من العمر ، الذي تجيش فيه النفوس بأعذب الأمانى ، وتتوئب
العزائم إلى الجليل من الأعمال .

أنتم الآن في سن ، هي سن الأحلام والآمال ، فليكن لكم نفع في
جماعتكم ، وبكم حرص على ما تتطلبه الجماعة منكم ، فما استحق الحياة من عاش
لنفسه فحسب .

إن العلم اليوم قد انفسح مداه ، ولا تظنوا أنكم وقد تخرجتم في دور
العلم ، قد نهتم منه ما يروى ظناًكم ، فتعلموا الترداد ثقافتكم سعة وعمقا ،
وتزادوا للحياة فهما وإدراكا لما فيها من جلال وجلال .

وإني حريص على أن أسمع عن رجال البعث منكم ما ترتاح له نفسي ،
وترضاه لكم بلادكم ، وإنا نريدكم رجالا أقوياء لأن عصرنا هذا لا يعيش فيه
إلا القوي ، واقربوا القوة بالطموح ، إذ لا خير في أمة تفقد روح الطموح .
وليكن لكم مثل أعلى في الحياة ، فانه هو الذي ينير لكم الطريق ، ويثبت
أقدامكم عند الشدائد ، ويفرس فيكم حب التضحية .

وإن مصر ، وهي تعلن حربا شعواء على الفقر والجهل والمرض ، لتنتظر من
شبابها المثقفين ، فتيات وفتيان ، أن يسهموا في خدمتها ، حتى يؤدوا الرسالة
السكبري ، رسالة الوطن القوي العزيز ، وأن ينصرفوا إلى إعداد نفوسهم
الأعداد الكامل ، وينفذوا الآراء المعوجة ، التي هي وليدة تفكير غير سليم ،
حتى يكونوا كما قلت لهم من قبل ، نارا تضيء لا نارا تحرق .

أيها الشباب :

هذه رسالتكم ، وإنها رسالة مصر لكم ، التي هي آمالنا وأحلامنا ،
فانهضوا بها ، وأدوها حق أدائها ، فالإنسان الجدير باسم الإنسانية هو من
أدى واجبه ، ثم عرف حقه .

الصبح البديعي

في عهد المحدثين الى عصر التأليف

قدمنا في كلمات سابقة أن الحياة العربية في القرن الاول الهجري لم تختلف كثيرا عن الحياة في العصر الجاهلي ، ولم تتباين عنها تباينا يقضى باستحالة الشعر الجاهلي الى شعر آخر ، إذ كان ينبع من المعين الذي ينبع منه الشعر الجاهلي ، وكانت الامة معترية بعريبتها فخورا بعاداتها وتقاليدها حريصة على سلامة أخلاقها محتفظة بدينها وإسلامها .

فلما كانت أوائل القرن الثاني الهجري أخذت الحياة العربية تسير بخطا فسيحة ، وتقفز قفزات سريعة في طريق الابتعاد عن العصر الجاهلي ، فما جاءت الدولة العباسية ووطدت دعائم خلافتها على أنقاض الامويين بإفناء جيوشهم والقضاء على مشايعهم وإعمال السيوف والأموال فيمن يدعون الى أنفسهم بأحقية الخلافة ، حتى أخذوا يحنون ثمار ما ظفروا وساقتهم الطمأنينة وحفزهم الامن ، ودفعهم الرخاء الى الاغراق في ألوان الترف والحضارة ، والانكباب على العلوم والثقافات المتداولة بين الأمم التي أخضعوها لسلطانهم فهرعوا الى تحصيلها جادين مسرعين ، فلم يدعوا علما ألا زاولوه ، ولا صناعة إلا عالجوها ، فبرز منهم في ألوان الثقافات عسدد غير قليل ممن أحيوا معالمها وأوضحوا آثارها ورفعوا منارها في العربية ، فكانوا مبعث الخير والبركة واليمن والإقبال على علوم هذه اللغة ومعارفها في جميع الاصقاع والبقاع التي سادتها الى هذا الأوان ، فتلونت الينابيع الفكرية في حياة الامة العربية ؛ وكان نقل قاعدة الخلافة ومثابة الشعراء والعلماء من الشام الى العراق إعلاما بوقوع العرب تحت تأثير الفرس ، فتوطدت الروابط بين العرب والأمم التي أخضعوها ، وتم التفاهم بالمصاهرة والاقامة والولاء ، وتعمدت الصلات وتشابكت بينهم وبين الأمم الملاصقة لهم ، وعاش العرب معيشة حضرية مترفة لآمنت الى الصحراء بل الى المدن وما فيها من زخارف الحياة ومتعها ؛ نعم إن العرب تحضروا بعض التحضر في العصر الاموي فسكنوا المدن وعاشوا فيها ، ولكن هذا التحضر لم ينزع من أحماق نفوسهم طبيعة البداوة ولا سيما في حياتهم الشعرية ؛ فما تزال نماذج الشعر العربي تنصح عن حوادث الصحراء ، وتتحدث عن مشاهد البداوة ، كما نرى في شعر جرير والفرزدق والأخطل وغيرهم .

أما في العصر العباسي فقد بلغت المماسكة العربية أقصى ذرى الحضارة وأرفع قمم المدنية ، فساد الامن ، وكثر الخير ، وتعددت مناحي الرزق ، ونفرت العرب للتمتع بما يدره الملك الفسيح من ألوان النعيم ، فرتموا في بحبوحة العيش ، ورفلوا في أبهى أنواع الحلل ، فارتدوا

الفلسفة الإسلامية بجامعة فؤاد الأول سابقاً ، ووكيل إدارة البحوث والثقافة الإسلامية بالأزهر ، وهو من أبناء الجامعة المصرية الذي تخصصوا في فرنسا وطاقوا في ألمانيا وأسبانيا ؛ وهناك الدكتور محمد غلاب خريج الأزهر وفرنسا ؛ وهناك الدكتور محمود حب الله خريج الأزهر وانجلترا ؛ وهناك الدكتور محمد البهي خريج الأزهر وألمانيا — وثلاثتهم من أساتذة الفلسفة بالجامعة الأزهرية — أليس تكون هذه اللجنة هو وحده رمزاً لما ينشده الأزهر ، ورمزاً لرغبته الأكيدة في الأخذ من المناهج الحديثة بما يلائم رسالته العلمية ؟ ومما زاد هذا الرمز بلاغة تنوع النظارة الذين تسارعوا الى حضور المناقشة .

نعم إنه كان من الطبيعي أن نرى هناك أساتذة من الأزهر وطلبة أزهرين ، غالبيت بينهم والمناقش من إخوانهم ، ولكن أليس من الغريب العار أن نجد بينهم أربعة قساوسة رهبان من يسوعيين ودومينكيين ، أحدهم مستشرق أمريكي والآخرون شرفيون ، بل مصريون ممن يعرفون الأستاذ المناقش جيد المعرفة ؟ وأليس أعجب من هذا أن نشاهد بين الحاضرين آنسات في المكان الخاص الذي خصص لهن في أعلى المدرج ؟

وما وافت الساعة الخامسة حتى افتتح سعادة الرئيس الجلسة بكلمة استغرقت نصف ساعة ، وهو يتكلم بحماسة رزينة هادئة واعتقاد حقيق يعطى أحياناً لعباراته نبرة قوية تجعلها تنفذ نفوذاً الى الأذهان والقلوب . بدأ بالثناء على فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرازق الذي طاقه عن الحضور انتماء المجلس الأعلى للأزهر ، وعلى فضيلة الأستاذ الكبير وكيل الأزهر ، وعلى فضيلة شيخ الكلية ، وكرر الشكر لكل من ساهم في العمل على اتساع دائرة الاتصال العلمي بين الأزهر والعلماء المدنيين والجامعيين ، خصوصاً فضيلة الأستاذ الأكبر الذي تخصص في الفلسفة بجانب تعمقه في النواحي الدينية المختلفة ، والذي أفادت منه الجامعة المصرية حيناً من الدهر . ثم أبدى سعادة الرئيس أملاً في أن الأزهر سينال اهتمام فضيلة الأستاذ الأكبر من الناحية الفلسفية ، وأن نوابغ الأزهريين سيكتفون — مع أستاذهم الأكبر — بجوانحهم للدارسات الفلسفية بحيث يستطيع الأزهر أن يؤثر — حتى من الجهة الفلسفية نفسها — على الجامعات الأخرى ، مادام الأزهر يطبق الأنماط العلمية في المناقشة والمناظرة في طلب الحق الذي هو ضالة المؤمنين . . .

ثم وجه سعادة الرئيس كلمة لطلاب البحث العلمي والحقيقة العلمية ، فاصحاً إليهم بالجد والاجتهاد واتساع الآفاق والصبر والأمانة العلمية ، حتى يصلوا إلى ذلك الموقف الذي وقف فيه زميلهم — صاحب الرسالة — ذلك الموقف الذي يدل على حب البحث العلمي والتفاني فيه ، والذي يفتح الأبواب أمام منهوى العلم الذين لا يشبعون . ونتمنى سعادته للأزهرين

مستقبلا بأهرا ما داموا يوسعون ميادين بحوثهم وآفاق ثقافتهم ، بحيث يلتقى بهم ويتبادل الفائدة معهم من لم يسعدم الحظ ، ومن لم تنح لهم الظروف أن يتشققوا بثقافة الأزهر .

ثم قرر سعادته : « أننا في عصر تعاون وتغام وتقارب بين الفلسفات ، بل وبين الأديان نفسها ، وأن هذا التواصل والتعاون هما اللذان يسيران بالإسانية إلى وحدتها المنشودة وقايتها المرجوة ، وآية ذلك ما نشاهد الليلة من جو مشبع بروح التسامح والنهوض الفكري » . وأشار سعادة الرئيس إلى أن هذه أول مرة يرى أو يسمع فيها أن في الأزهر غربيين وقساوسة ورهبانا : « وهذا يذكرنا بروح التسامح الذي كان الأزهر متساميا به ، والذي كان صدر الأزهر دائما منفسحا له . وأن هذه أول مرة أيضا سمع فيها سعادته أو رأى آسأت يحضرن مجالس العلم في الأزهر وتخصص لمن أما كن فيه » . وهذا يدل على درجة عالية في النضوج الفكري والمستوى العلمي المفروض طلبه على كل مسلم ومسلمة ، ويبين في وضوح أن الأزهر أخذ يقدر ما هو مطلوب منه بإزاء المسلمات بجانب ما هو مطلوب منه بإزاء المسلمين ، وأن هذا كله جو مبشر يدعو إلى التفاؤل بمستقبل الأزهر ، الذي كان قد أمزل مدة طويلة حتى عن العلماء المدنيين » .

ثم قال سعادته : « أما وقد لبى الأزهر حاجة العصر ، وسابر روح الزمن ، فساهم في الوحدة العالمية ، واتصل بالعلوم التي تكونت في ميادين أخرى بروح التسامح الديني ، والتأزر الفلسفي والتآخي العلمي ، فإنه سيصل - قريبا - قديمه بحديثه ، ويصبح منبع ثروة كبيرة في التوجهات الفكرية والعلمية والدينية للعالم كله ، وهذا مأمول ، وهو في رعاية شيخ درس الفلسفة الإسلامية والفلسفة الغربية وأفاد مما فيهما من خير مذكور . وأصبح حتى العامة لكل شخص أن يعمل للخير الذي وضعه الله في فطرة الإنسان السليمة ، تلك الفطرة التي تتمثل في الأديان جميعا : خيرا ، ومحبة ، وإخاء ، وعدلا . . . حتى يكون هناك التفاهم الفكري والتفاهم الروحي ، وحتى تسير الانسانية إلى خير ما خلقت له (١) » .

ولعمري ! لم أكن لانتظر في هذه القاعة هذا الوضوح في رسم الهدف ، وهذه العزيمة في السعي وراء تحقيقها ، فها هي الروح الجديدة التي كنت أسأل عما إذا كانت وصلت إلى الأزهر ، وها هو الزرع المبارك الذي بدأ ينبت بإذن ربه ، فالمنافسة التي تلت هذه الكلمة جاءت بمثابة تطبيق للعبادى التي وضعها سعادة الرئيس ، فالاستاذ صاحب الرسالة - وهو واقف رابط الجأش أمام المجلدات الأربعة لرسالته - أخذ يشرح موضوع رسالته ، ثم يجيب بهدوء عن الأسئلة التي وجهها إليه بالنوال أعضاء اللجنة ، وهي أسئلة دقيقة تنفذ إلى لب الموضوع : تحاول تارة نقد منهج البحث ، وتستفسر طورا بعض نتائج الرسالة ؛ حوار بديع

على رزين ، أماد إلى ذاكرتي تلك الرسائل التي تناقش في أوروبا ، ولكن هنا مع شيء من « الطرف » المصري الذي لم يقلل شيئا من جسد المناقشة ، بل يكسبها روحا شرقية خاصة لم أجدها في الخارج .

وفي تمام الساعة الثامنة والنصف — أعني بعد مناقشة استغرقت ساعتين — رفعت الجلسة وخرجت اللجنة للعداولة ، ولما رجعت إلى قاعة المناقشة فطن سعادة الرئيس بالحكم قائلا : « بعد أن تناقش أعضاء اللجنة فيما استبانوه من حسن الاستعداد الفلسفي ، واتساع الآفاق ، والجهود القيم في التأليف ، والمثابرة على العلم ومراعاة الخلق العلمي ، وتلقى النقد بصدر رحيب يدل على محبة الحق ... قررت اللجنة فوز فضيلة الأستاذ الشيخ محمد بن فتح الله بدران بمهادة العالمية مع لقب أستاذ من درجة ممتاز في التوحيد والفلسفة » . فدوت القاعة بالتصفيق والهتاف ...

ورجعت إلى « الدبر » والذهن مملوء بتفاصيل هذه الحفلة الثقافية العليا ، فحدثتني نفسي أن أسطر هذه الأسطر ، لعلها تسام — لا من جهة الرأي الشخصي ، بل من جهة الواقع المحسوس — أقول : لعلها تسام في إيضاح مشكلة الأزهر التي عولجت مرارا على صفحات مجلة الرسالة الغراء .



الأدب فنوائي

مركز تحقيقات مركز دراسات إسلامية

في الكناية منجاة

لما هزم الحجاج عبد الرحمن بن الأشعث وقتل بعض أصحابه وأسر بعضا آخر ، كتب إليه أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان أن يعرض الأمر على السيف فمن أقر منهم بالكفر خلى سبيله ، ومن أبى يقتله . فأتى منهم بالعلماء الكبار : عامر الشعبي ، ومطرف بن عبد الله ابن الشخير ، وسعيد بن جبير .

فلما سئل الشعبي قال : أصليح الله الأمير فباينا المنزل ، وانخزل الجناح ، واستجلسنا الخوف ، وخبطتنا فتنة لم تكن فيها بررة أتقياء ، ولا جرة أقوياء .

فقال الحجاج : صدق والله ، خلوا سبيله .

ثم قدم إليه مطرف بن عبد الله ، فقال له الحجاج : أتقر على نفسك بالكفر ؟ قال : إن من شق العصا ، ونكت البيعة ، وأخاف المسلمين لجدير بالكفر . فاكتمى الحجاج منه بهذا الكلام وقال خليا عنه .

ثم قدم إليه سعيد بن جبير ، فقال له الحجاج : أتقر على نفسك بالكفر ؟

فأجابه ما كهرت بالله مذ آمنت به . فقال الحجاج : اضربوا عنقه .

فكر المؤلف في الجدل

فلسفة المتكلمين

هذا اسم كتاب وضعه المحامي الجليل يوسف الباجا يقع في ١٧٠ صفحة جمل موضوعه البحث في فلسفة المتكلمين ، ونقد ما يوجب النقد فيها . فبدأ مقدمته بقوله :

« يجوز لنا أن نبحث في أحكام الدين بحثاً عقلياً ، أم يجب ألا نسلط عليه شعاع المنطق والعقل ، وأن نتقبله بالعقيدة الراسخة والایمان فحسب ؟ »

ذهب جمهور السلف والحشوية الى تجنب ذلك البحث مطلقاً ، فلا يجوز أن نسأل لم ولا كيف ، وإنما هكذا جاء فلا سؤال . سئل مالك بن أنس عن الاستواء فقال : « الاستواء معلوم ، والسكيف مجهول ، والایمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أظنك إلا ضالاً . »

وقال الغزالي اعتذاراً عن ابن حنبل في هذا المقام : إنه إنما منع التأويل لمصلحة الحق خوفاً من أن يخرج الأمر عن حد الضبط والاقتصاد .

ويرى ابن القيم : أن الشريعة هي الحقيقة وممن رام الحقيقة في غير الشريعة فهو محدوع .

« ولكن هذا الرأي موجب للركود ، بل للخمود والضعف ، فاقیمة هذا الايمان الذي أخفى عليه من عقلي ؟ وما قيمة تلك العقيدة التي يكفي سؤال واحد لزعزعتها . وهل الدين ما هو منطبق على العقل ، أم جاء الدين بما لا يقبله العقل ؟ أو ليس منعنا البحث العقلي في الدين إقراراً منا بالعجز على أنفسنا ، وبأن الدين أضعف من العقل ؟ لا شك في أن العقل قاصر في بعض النواحي ، ولا شك أيضاً في أن الشعور قوة كادت أن توازي للعقل ، ومع هذا فلا بد من وصل الدين بالعقل ، إن لم يكن في كل أحكامه فعلى الأقل في كثير من أحكامه . ثم قال ما ملخصه :

« أجل لهذا أجزى البحث العقلي وأقرته الأشعرية ، وقرر الغزالي بأن إزالة الشكوك واجبة ، واعتبر علم الكلام واجباً ، وأمرنا ضرورياً في الدين . وقرر في كتابه الاقتصاد أن الدعوة الى الحق بالبرهان مهمة في الدين ، ثم قرر أيضاً أن من ظن من الحشوية وجوب الجود في التقليد واتباع الظواهر إنما هو مخطيء ، وما هذا إلا من ضعف العقول وقلة البصائر » .

هذا ما كتبه حضرة الاستاذ المحامي المحترم ، ثم مضى في بحثه في هذا الموضوع وأتى على كل ما يجب الاستشهاد به في هذا الموطن ، موطن حرية البحث في الاسلام ، وهو عمل جليل نشكره عليه ونرجو له التوفيق فيه فالامة أحوج ما تكون الى مثله .

يوم العلم في قصر رأس التين

حضرة صاحب الجلالة الملك يقابل المتفوقين من طلاب العلم

سبقت ذكر هذا اليوم الميمون خالدا في تاريخ النهضة العلمية في مصر ، وسيكون أثره في نفوس الطلاب من أبقى الآثار وأبركها ، فقد رأى حضرة صاحب الجلالة ملك مصر العظيم فاروق الأول ، أن يضع عادة ملكية جديدة تضاف الى سائر ما وضعه في شئون الدين والدنيا من العادات المحموده التي تزيد في علاقات الراعي بالرعية ، وتكون لها آثار بعيدة المدى في التطورات الادبية والمادية في حياة هذه البلاد وما يتصل بها بروابط المودة من سائر الجماعات العربية ؛ ذلك اليوم المشهود كان يوم ٢٢ سبتمبر سنة ١٩٤٦

توجه بدعوة من القصر في ذلك اليوم ٧٦٠ طالبا وطالبة الى قصر رأس التين ، يرافقهم رؤساء الكليات التي ينتمون اليها ، وقصد اليه أيضا المدعوون من رجال الحكومة والعلم والصحافة ، وقيدوا جميعا أمماءهم في سجل التشريفات الملكية ثم انتقلوا الى بهو الاستقبال . وفي الساعة الخامسة تفضل جلالة الملك فاستقبل هذه الوفود في قاعة مجاورة يحيط به رجال القصر ، ووقف الى يساره صاحب الدولة رئيس الوزراء ، وكانت جلالة الملك يقابل الذين يصافحهم باشا متعظما . وبعد تمام هذا الاستقبال دعى هؤلاء الزائرون الى ناحية واسعة من حديقة القصر ، ووقف الطلبة صفوفًا بين القصر وساحة الحفلة .

ولما أقبل جلالة الملك الى مكان الاحتفال وحوله من تقدم ذكرهم ، بدأ استقبال الطلبة المتفوقين ، فكانوا يتقدمون نحو جلالته متتالين ، وعلى رأس كل فريق منهم مدير معهد العلم ، ومهمته ذكر اسم الطالب حين تشرفه بمصافحة جلالة الملك العظيم .

وبعد أداء هذه المراسيم تقدم جلالة الملك الى موآلد الشاى . وهنا وقف حضرة صاحب المعالى وزير المعارف فألقى بين يدى جلالته كلمة تناسب المقام سنأتى بها هنا . فلما انتهى معاليه الى ذكر الطلبة السودانيين هتفت جموع الطلبة داعية لمليك مصر والسودان .

وبعد تناول الشاى قادر جلالة الملك مكان الاحتفال ، وتفضل جلالته بإذاعة الرسالة الملكية التي صدرنا بها هذا المقال ، وقد أودعت من الحكم البالغة ، والنصائح الثمينة ، والاصول القيمة ، ما هو جدير بمكانته الرفيعة ونفسيته الحسنة .

وقد وزع في ختام الحفلة على كل طالبة وطالب صورة فوتوغرافية مثقنة الصنع لجلالة الملك ، تحنها اسم المهداة إليها أو إليه ، مكتوبا تحت الاسم هذه العبارة : « لمناسبة تفوقها أو تفوقه في الامتحان سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦ » .

بلاغ كبير الائمة

ديوان كبير الامناء يوم الاحد ٢٢ سبتمبر — في الساعة الرابعة والنصف بعد الظهر
أقيمت حفلة شاي في حديقة قصر رأس التين العامر تكريماً لحضرات أعضاء بعثات الحكومة
والأوائل الطلبة والطالبات الذين أتموا دراستهم هذا العام في كليات الجامعة الأزهرية
وجامعتي فؤاد الأول وفاروق الأول والكلية الحربية الملكية وكلية البوليس الملكية
وجميع المعاهد العالية والفنية والمتوسطة بمختلف أقسامها .

وقد حضر الحفلة حضرة صاحب الدولة رئيس مجلس الوزراء ، وحضرة صاحب الفضيلة
الاستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر ، وحضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية ،
وحضرات أصحاب السعادة والعزة وكيل وزارة الداخلية ورئيس مجلس إدارة كلية البوليس
الملكية ووكيلي وزارة المعارف العمومية ، وحضرة صاحب العزة مدير جامعة فاروق الأول ،
وحضرة صاحب الفضيلة المدير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية ، وحضرات أصحاب
السعادة والعزة وكيلي جامعتي فؤاد الأول وفاروق الأول وسكرتيريهما ومهداء الكليات بهما ،
وحضرات أصحاب الفضيلة السكرتير العام للجامع الأزهر وشيوخ كلياته ، وصاحب العزة
مراقب للتعليم بمنطقة غرب الدلتا ، وحضرة المراقب العام للبعثات ، وصاحب العزة مدير مكتب
البعثة بروما ، وحضرات وكيل البعثة في لندن والمشفرة على طالبات البعثة في إنجلترا ، ومديري
ونظار وناظرات المعاهد التي تخرج فيها الطلبة والطالبات المدعوون ، وحضرات رجال الصحافة
والإذاعة والسينما وكبار رجال القصر الملكي .

وبعد أن تفضل حضرة صاحب الجلالة الملك بمصاحبتهم جميعاً استمع أعزه الله إلى الكلمة
التي ألقاها في حضرته السنية حضرة صاحب المعالي وزير المعارف العمومية ، ثم تعطف جلالاته
وتناول الشاي معهم . وبعد أن استمعوا إلى الرسالة الملكية السامية أهديت إلى كل من
الطلبة والطالبات الأوائل بأمر جلالاته صورته الكريمة .

خطبة وزير المعارف

مولاي صاحب الجلالة :

في ساحة هذا القصر الكريم يا مولاي ، وفي ظل عرشك الممدود على البعيد والداني ،
وفي أشرف دار على أرض وادي النيل ، تجتمع اليوم هذه الصفوة المختارة من شباب وادي
النيل ، شاخصة أبصارهم إلى ذاتكم الكريمة ، متطلعة نفوسهم إلى مثلكم العالي ، مزهوين

بما نالهم من شرف الدعوة والداعي ، ذو منين بالرسالة التي حملتهم مصر أماتها حين اختارتهم ليكونوا سفراء العلم والحضارة بين الشرق والغرب ، يذيعون مفاخر بلادهم على أعين الناس فعلا وقولا ، ويقتبسون لبلادهم من ألوان الحضارة الغربية علما وعملا .

ولاول مرة يا مولاي في تاريخ البعثات المصرية ، وفي عهد جلالتك الزاهر ، وبتوجيهكم الحكيم ، تضم بعثاتنا العلمية هذا العام طائفة من شباب السودان الذين أنعموا عليهم الجامعي في مصر ، الى طائفة من شباب مصر الممتازين ، متجهين الى هدف مشترك لتحقيق رفاهية وادى النيل ، فكان اجتماعهم هذا الفريد ، في ظل عرشكم المجيد . في سبيل ذلك الهدف المشترك ، وهذا يبلغ الدلالة على معنى الوحدة التي ربطت بين شطري الادي في الشمال والجنوب ، ووحدت بين أهداف سكانه وجمعهم عقلا واطافة على الولاء لصاحب عرش وادى النيل .

وقد تفضلتم جلالتم فأسبغتم عليهم شرفا عظيما ، فأذتم في أن يكون اسمهم (بعثة فاروق الاول للطلبة السودانيين) .

مولاي صاحب الجلالة : أولئك أعضاء البعثات العلمية في هذا العام ، وقد وفدوا الى رحابكم الفسيح مودعين داعين ، موطين العزم على الوفاء بعهد وادى النيل ، أن يكونوا له خداما مخلصين ، مجددين الولاء لصاحب عرش وادى النيل أن يتخذوه قدوة وإماما ، ويجعلوا مثله العالي نبراسا وهدى ، فانهم اليوم ليتزودون من عطف جلالتم وشرف توجيهكم أكرم زاد للرحلة التي يعتزمون غدا في سبيل الله والوطن والمملك !

بضع ومائتان من الفتيات والفتيان سيكونون غدا على الطريق الى أوربا وأمريكا ، وآخر ما وعته قلوبهم من صور بلادهم الحبيبة هي صورة الملك المعظم الذي أقسم ليلفن ببلاده آخر المدى في العلم والحضارة ورفاهية العيش ، وقد آن أن تبلغ مصر ما أمل لها جلالته بحسن سعيه ودأب جهاده وكريم توجيهه السامي .

ولانه لما يستدعى التنويه في هذا المقام الجليل أن بعثاتنا العلمية في هذا العام - استجابة للرضا الملكية السامية - قد ضمت طائفة مختارة من فتياتنا المنققات ، بعثن للتخصص في بعض الشؤون النسوية والدراسات الاجتماعية ، ليساعدن بعد تمام دراستهن على ترقية مستوى المرأة المصرية والنهوض بها ، ويعملن على خلق مجتمع صالح وتكوين جيل من الفتيات والفتيان جذبر بشرف الانتساب الى مصر الناهضة .

وقد حرصنا على تحقيق رغبة جلالتم في توفير أسباب الطمأنينة والراحة لهؤلاء المبعوثات باختيار مشرفة من ذوي المؤهلات الخاصة ، تقوم على شؤونهن ، وتعنى بحسن توجيههن والاشراف على حياتهن الجامعية والخاصة ، لكي تكون فتياتنا في الخارج في ظل من الرعاية المتصلة والتوجيه المثمر ، كما سيعنى بتوفير المقام لهن تحت رعاية هذه المشرفة .

وقد عنيانا في هذا العام بالتوسع في البعثات العلمية لنتجه خير الانجازات في حياتنا الاقتصادية والثقافية ، كما عنيانا بأز نصل بين القائمين والقائمات على شئون التعليم وبين التطورات الثقافية والتربية الحديثة ، فشملت البعثات طائفة غير قليلة من فاضلات المدارس ونظارها ، ليتصلوا بمحيط المعاهد في الخارج ، ويقفوا على المستحدث من أساليب التربية ووسائل الاشراف على الطلبة في حياتهم العامة والخاصة .

واستكمالاً لوسائلنا في مكافحة الفقر والجهل والمرض حرصنا على إعداد من يعهد إليهم بالأشراف على الجهود الاجتماعية التي تبذل في هذا الكفاح ، فشملت البعثات طائفة من الشبان الذين أعدوا لهذا الغرض في مصر إعداداً خاصاً ، ليستزيدوا ثقافة وصراناً في البلاد التي تعمى هذه النواحي في الخارج .

وقد رأينا أن تقوم مكتبة المعارف المصرية في الخارج بعمل أوسع نطاقاً من عملها في الأعوام السابقة ، فتعرف الأجانب بوادي النيل وحضارته القديمة والحديثة ، كما تعرف المصريين بحضارة الأمم التي يعيشون بين ظهرانيها .

مولاي صاحب الجلالة : إن إرسال البعثات العلمية الى الغرب سنة حكيمة سنها مجدد مصر وباعت نهضتها الفتية المغفور له محمد علي باشا جدكم الأعلى ، ووسع مداها وسدد أهدافها جدكم العظيم الخديو إسماعيل ، ثم وجهها الى الغاية والدكم المبرور الملك فؤاد ، طيب الله ثراه وأخلد ذكره ، ثم كانت هذه النهضة المباركة التي قفزت بالبلاد في عشر سنين خطاً فاسحاً ، فإذا مصر معقد الرجاء ومتطلع الاعين ، وإذا هي الزعيمة بين دول الشرق الناهضة ، والصديقة المرجوة بين أمم الغرب القوية ، وتبلور ماضيها المجيد وحاضرها الزاهر في صورة فريدة تعبّر عن أعرق أمجاد الماضي وأرفع آماني المستقبل ، هي صورة مليكها الشاب الذي نهض فيها من روحه ، وجدد عزها بمزيمته ، وسدد خطاها نحو الهدف بإسمى حكمته وسديد إرشاده ، فإذا هي في ركب الحضارة أمة ماضية بعد انقطاع ، وإذا هي في مجموعة الدول المتحضرة دولة ذات رأي واتباع ، وهذه الصنوة المختارة يا مولاي من شبابها المتعلم ، ظل من تلك الصورة التي رسمتها طلمعتك في مرآة تاريخها المعاصر ، قد سعوا الى هذا الرحاب الفسيح يستمدون التوجيه ويلتمسون القدوة ، ويتزودون من مليكهم زاد الايمان والوطنية قبل الرحيل الى غايتهم ليكونوا في غد جنداً من جند وادي النيل ، يعضون به الى الغاية التي سدد الهدف اليها صاحب عرش وادي النيل .

وهنا طائفة أخرى من شباب الوادي قد شملهم شرف دعوة المليك الى رحابه ، أولئك هم المتفوقون والمتفوقات من خريجي الجامعات والمعاهد العلمية والفنية المختلفة في هذا العام .

مجموعة رشيدة من الشباب والشابات قد أخلصوا أنفسهم للعلم ، يبذلون له ويجاهدون في سبيل تحصيله ، يلتزمون الأسباب للترود منه ، ليكونوا في غد أهلا لحل التبعات التي تفرضها الوطنية الصحيحة على كل مواطن رشيد ، فلم تصرفهم عن التحصيل نوازع الشباب أو تستخفهم نوازي الشر والفتنة ، أو تغترم دمايات السوء ، أو تخدعهم بهارج الألفاظ عن حقيقة معنى الوطنية ، إذ كانوا موقنين أن العلم دون غيره هو سبيل الوطنية الرشيدة ، وعدة الكفاح المظفر ، ووسيلة المجد الباقي ، وأن دعوى الوطنية إذا لم تقم على أساس متين من العلم بمحدد الهدف ويوجه إلى الغاية ويبصر بالطريق ، فليست إلا دعوة إلى التخريب والدمار والفتنة . وهام أولئك يا مولاي يجدون برهان ما آمنوا به ، ويجنون أول ثمرة من ثمار جهادهم الموفق ، وإيمانهم المستبصر ، ووطنيتهم العاسلة ، فهم اليوم ضيوف المليك المعظم ، قد شرفهم بالدعوة إلى قصره العامر ، وأهل عليهم بطلمته الميمونة ، وشملهم بعظمه السابغ ووطيته السامية ، وإنه لشرف لا يناله إلا الأكفاء ، ولعلمهم أن يقطفوا عن قريب ثمرة أخرى ، فينالهم شرف الدعوة إلى قصر المليك مرة ثانية ، يوم يختارون أعضاء للبعثات في الأعوام القادمة ، إن شاء الله .

وإن وراء هؤلاء يا مولاي جنودا مخلصين قد توفروا بوقتهم وجهدهم وبمن آزرهم من الاساندة على إعداد هذا الجيل ، فلم يدخروا وسعا في سبيل تنشئته النشأة الصالحة التي تجعله أهلا لشرف الانتساب إلى عرش الفاروق العظيم . وهام أولاء قد جاءوا يشهدون أكرم تحية يؤديها المليك إليهم في شخص هؤلاء المتفوقين النابهين من أبنائهم وبناتهم .

مولاي صاحب الجلالة : أولئك المبعوثون وهؤلاء المتفوقون يا مولاي ، غرس أينع في يديك الكريمين وآتى ثمرته ، وإنها ثمرة مباركة بعون الله وبحسن توجيهه جلالته ، وإن هؤلاء وأولئك لعنوان بارز على حقيقتين ماثلتين :

عنوان على مقدار ما بولى جلالة المليك المعظم هذه النهضة من تشجيعه ووطيته ، وعنوان كذلك على مقدار ما بلغت مصر لعهد من الرقي في أسباب العلم والحضارة .

أطال الله عهدك يا مولاي ، وأبدك بروح من عنده ، حتى يبلغ وادي النيل على يديك مأموله وتبلغ به مأمولك ، وأدام توفيقك إلى صالح الأعمال وأطالك ، ولازال هذا الرحاب الفسيح يا مولاي موثلا للقاصدين ، وملذا للمائدين ، ومصدرا للتوجيه الصالح وللرشد والسداد !!

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

ما أفاد الإسلام للمدنية

شهادات لا يمكن النكار في صحتها

لقد أفاد الإسلام العالم كله من الناحيتين الدينية والمدنية إفادة يتمنر تقديرها ؛ وليس المسلمون بحاجة لأن تبين لهم وجوه الافادة الدينية ، فإن ما يعلمونه من سلامة عقائدهم ، وأصالة أصولهم ، وما أبيع لهم من حرية الفكر والنظر ، والاعتماد على العقل وأعلام الوجود ، لا تدعهم يشكون في أن دينهم سن للناس كافة سنة لا محيص لهم عن القيام عليها . فإن ظهر أن كثيرا منهم لا يزالون يتحامون الجري عليها ، فسيضطرم الشرق العلمى والفلسفى الى الاعتراف بحقيقتها ، وإذ ذاك يلتقى الناس كافة فى حفلة واحدة هى حفلة الإنسانية الموحدة تحت علم الدين الفطرى والمعارف الممحصنة .

أما من الناحية المدنية فقد شهد العالم كله بأن المسلمين حفظوا التراث العلمى العالمى ، وتولوه بالزيادة والتحصيل ، وضبقوه على حاجات الحياة الإنسانية ، فأوجدوا بذلك مدنية ليس فى العالم اليوم من بدعى أنه ليس مدينا للإسلام من هذه الناحية .

قد استشهدنا على صحة هذه الدعاوى بمجاهير من كبار المؤرخين والعلماء الأوربيين ، وآخر ما وصل إلينا عنهم فى هذا الباب كتاب حضارة العرب للعلامة الاجتماعى جوستاف لوبون وقد ترجمه الى العربية الأستاذ النابه محمد عادل زعيتر . ونرى أن تقنيس منه بعض ما قاله العلامة الاجتماعى المذكور فى هذا الشأن ليتدبره المسلمون ، ويعرفوا أن ما قصروا فيه من بيان هذا الحق ، قد قام به من منصفى الغربيين من لا يمتنون إليهم بأقل صلة .

قال العلامة جوستاف لوبون تحت عنوان (تمدن العرب لأوربا — تأثير العرب فى الشرق والغرب) :

« خضع الشرق لكثير من الشعوب كالفرس والإغريق والرومان الخ ، ولكن تأثير هذه الشعوب السياسى ، إذا كان عظيما فيه ، فإن تأثيره المدنى فيه كان ضعيفا للغاية .

« وما عجز الإغريق والفرس والرومان عنه ، قدر عليه العرب بسرعة ومن غير إكراه .
« وما وفق العرب له فى مصر اتفق لهم مثله فى كل بلد خفقت فوقه رايتهم كأفريقيه (بربدونس) وسورية وفارس . وقد بلغ نفوذهم بلاد الهند التى لم يدخلوها إلا طارى سبيل .
وقد كان لهم تأثير واضح فى بلاد الصين التى لم يزوروها إلا تجارا .

« ولا نرى فى التاريخ أمة ذات تأثير بارز كالعرب ، فجميع الأمم التى كانت ذات صلة بالعرب اعتنقت حضارتهم ، ولو حيننا من الزمن .

« ولم يتجلى تأثير العرب في الشرق في الديانة واللغة والفنون وحدها ، بل كان لهم الأثر البالغ في ثقافته العلمية أيضا . وقد نقل العرب إلى الهند والصين أثناء صلاتهم بهما قسما كبيرا من معارفهم العلمية التي عدها الأوروبيون على غير حق من أصل هندي أو صيني .

« ويظهر أن ما اقتنسه الصينيون من العرب أهم مما أخذته الهند عنهم ، وقد رأينا في فصل سابق أن علوم العرب دخلت الصين على أثر الغارة المغولية ، وأن الفلاسكى الصينى الشهير كوشوكينغ تناول في سنة (١٢٨٠) م ، رسالة ابن يونس في الفلك وأذاعها في بلاد الصين ، وأن الطب العربى انتشر في الصين في سنة (١٢١٥) م ، وقما غزاها كوبلاى .

« نثبت الآن أن تأثير العرب في الغرب عظيم كتأثيرهم في الشرق ، وأن أوروبا مدينة للعرب بمحضارتها .

« ولا يمكن إدراك أهمية شأن العرب في الغرب إلا بتصور حال أوروبا حينما أدخل العرب الحضارة إليها . فاذا رجعنا الى القرن التاسع من الميلاد حين كانت حضارة العرب الاندلسية في أوج نضارتها ، رأينا أن مراكز الثقافة في الغرب كانت أبراجا يسكنها أمراء إقطاعيون متوحشون يفخرون بمجزم عن القراءة ، وأن أكثر رجال النصرانية معرفة هم الرهبان المساكين الجاهلون الذين كانوا يصرفون أوقاتهم في أديارهم ليكشطوا بحشوع كتب الأقدمين النفيسة ليكون عندهم بذلك من الرقوق ما هو ضرورى لنسخ كتب العبادة .

« مضت مدة طويلة قبل شعور أوروبا بهمجبتها ، ولم يبد ميلها إلى العلم إلا في القرن الحادى عشر والقرن الثانى عشر من الميلاد ، فلما ظهر فيها أناس رأوا أن يرفعوا أكتفان الجهل عنهم ، ولوا وجوههم شطر العرب .

« ولم تكن الحروب الصليبية سببا في إدخال العلوم إلى أوروبا كما يظن على العموم ، وإنما دخلت العلوم أوروبا من أسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ففي سنة (١١٣٠) م ، أنشئ في طليطلة مكتب للترجمة تحت رعاية رئيس الاساقفة ريمون ، فصار هذا المكتب ينقل إلى اللغة اللاتينية أم كتب العرب . وقد كللت أعمال ذلك المكتب بالنجاح فبدأ الغرب عالم جديد ، ولم يتوان العرب في أمر تلك الترجمة في القرن الثانى عشر والقرن الثالث عشر والقرن الرابع عشر والقرن الخامس عشر من الميلاد . ولم يقتصر في تلك القرون على ترجمة مؤلفات علماء العرب كالرازى وأبى القاسم وابن سينا وابن رشد الخ وحدها الى اللغة اللاتينية ، بل نقلت إليها كتب علماء اليونان من ترجماتها العربية ، ككتب جالينوس وبقرات وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وأرخميدس وبطليموس ؛ وقدروى الدكتور (لوكير) في كتابه الذى سماه (تاريخ الطب العربى) أن عدد ما ترجم من كتب العرب الى اللغة اللاتينية يزيد عن ثلاثمائة كتاب ، ولم تعرف القرون الوسطى كتب قدماء اليونان في الحقيقة إلا من ترجماتها العربية ، وبفضل هذه الترجمات اطلعنا على محتويات كتب اليونان التى ضاع أصلها ، ككتاب أبولونيوس

في المخروطات ، وكتاب جالينوس في الأمراض السارية ، وكتاب أرسطو في الحجارة الخ . وإذا كانت هنالك أمة تقرر بأننا مدينون لها بمعرفتنا ما انطوت عليه القرون القديمة فالعرب هم تلك الأمة ، لارهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون اسم اليونان . فعلى العالم أن يعترف للعرب بحميل صنعمهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة . قال المسيو (ليبري) : لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخرت نهضة أوروبا الحديثة عدة قرون :

« إن عرب الأندلس إذن هم الذين صانوا في القرن العاشر من الميلاذ العلوم والآداب التي أهملت في كل مكان ، حتى في القسطنطينية ، ولم يكن في العالم في ذلك الزمن غير الأندلس العربية بلاد يمكن طلب العلم فيها . في بلاد الأندلس كان يذهب أولئك النصاري القليلون لطلب العلوم ، ونذكر منهم على حسب بعض الروايات التي لا تزال موضوع جدال جربرت الذي صار بابا في سنة ٩٩٩ ملقباً بسلفستر الثاني ، ولما أراد هذا البابا أن يفشر في أوروبا ما تعلمه عد الناس ذلك من الخوارق واتهموه بأنه باع روحه الى الشيطان .

« وقد كانت ترجمات كتب العرب العلمية المصدر الوحيد للتدريس في جامعات أوروبا نحو ستة قرون . ويمكننا أن نقول إن تأثير العرب في بعض العلوم كعلم الطب مثلاً دام الى الزمن الحاضر . فقد شرحت كتب ابن سينا في مونبيليه في أواخر القرن الماضي . »
ثم قال الدكتور جوستاف لوبون :

« وإذا كان تأثير العرب عظيماً في أنحاء أوروبا التي لم يسيطروا عليها إلا بمؤلفاتهم ، فقد كان تأثيرهم أعظم من ذلك في البلاد التي خضعت لسلطانهم كبلاد أسبانيا . . . ولن يرى الباحث مثلاً أوضح من العرب على تأثير إحدى الأمم في أمة أخرى ، ولم يشتمل التاريخ على ما هو أبرز من هذا المثال . »

هذا ما يقوله العلماء الاجتماعيون الأوروبيون الذين لا يصح اتهامهم بالمبالغة والاغراق في أمر لا تعود منه عليهم ولا على أقوامهم أية مفخرة . ونحن إن نشرناه هنا كما نشرناه عشرات من مثله في تقدير تأثير أوائلنا في أحوال العالم الأدبية والمدنية ، فما ذلك إلا لندلل على أن في الاسلام روحاً تبعث الآحاد والجماعات الى الارتقاء لا يوجد ما يشبهها في التعاليم البشرية . ولنا من وراء ذلك مطلب أكبر قيمة من هذا ، وهو أن نستفيد منه لنستعيد مجدنا القديم ومكانتنا العالمية الماضية ، وهو أمر لا سبيل اليه إلا بعملنا المتواصل لتجلية الاسلام في صورته الحقيقية باجتثاث جذور البدع المتفشية في جميع الشعوب الاسلامية ، وقطع دابر الآراء الضالة في الدين والدنيا والآداب العامة والخاصة ، والعمل في دؤوب ومضاء على توهين أصول الفلسفة المادية التي تعتبر أقوى عدو للاديان في العصر الحاضر ، ومن الله التوفيق ما

محمد فريد وهري

السنن

الوصاة بالجار والمرأة

عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذي جاره ، واستوصوا بالنساء خيرا ؛ فانهم خلقن من ضلع ، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه ، فإن ذهبت تقيمه كسرته ، وإن تركته لم يزل أعوج » واستوصوا بالنساء خيرا ، رواه الشيخان (١)

إجمال :

تأتى كلمة كان في مثل هذا المقام للدلالة على تأكيد المعنى المراد ، وربطه برباط الدوام والاستمرار ؛ أى من قوى إيمانه بأن الله خالقه ومجازيه في يوم لا ريب فيه ، واستمر على ذلك وأطمأن قلبه به ، كان جاره في مأمن من أذاه ؛ وهذا أول من القول زيادتها ، لأن الزيادة من غير معنى عبث ينزه عنه كلام البلغاء فضلا عن كلام الله ورسوله . والنساء : اسم جمع للمرأة لا واحداً من لفظه ، ومثله النسوة ، وقيل إن الأول جمع للثاني . واستوصوا بهن : أى اطلبوا الوصية بهن من أنفسكم ، أو اطلبوا الوصية من غيركم بهن ، ويلزم ذلك أن تحافظوا أنتم عليهن ، لأن من وصى غيره بأمر كان هو أحرص عليه . وقيل معناه : اقبلوا وصيتي فبهن ، واهملوا بها وارفقوا بهن ، فالسين والتاء على هذا ليست للطلب ، بل للقبول والمطاوعة ، كأحكامه فاستمعكم ، ورجع هذا المعنى صاحب الفتح . والضلع بكسر أوله وفتح ثانيه وقد يسكن : واحدة الاضلاع ، وهى تؤنث وتذكر ، ولذا عاد الضمير هنا اليها مذكراً ، وفي رواية أخرى « المرأة كالضلع إن أقمته كسرتها ، وإن استمعت بها استمعت بها وفيها عوج » وقد عاد الضمير اليها مؤنثاً (٢) وسيأتى تأويل خالقها من الضلع .

تفصيل :

عنى الاسلام بالجار والاحسان اليه عناية لم يعرف ، ولن يعرف ، لها مثيل في تاريخ

(١) إلا أن البخارى جمع بين الوصاة بالجار والمرأة في هذه الرواية ، وستأتى الحكمة في جمع النبي صلى الله عليه وسلم بينهما في حديث واحد . وقيل إنهما حديثان جمع بينهما الراوى . وأفرد مسلم كلا على حدة .
(٢) ويجوز أن يعود الى المرأة ، وربما أيده ما بعده .

الأخلاق والاجتماع . ذلك بأن الاسلام يأمر بالتعاب والتواد ، والتعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الأثم والمعدوان .

وإذا كان سوء الجوار يدعو إلى الشقاق والنفاق ومساوىء الأخلاق ، فإن حسن الجوار يدعو إلى البر والخير ومحاسن الأخلاق ؛ ومتى تنافس الجيران في المكارم ، وتعاونوا على الفضائل ، فبشرهم بحياة طيبة وهيش هنئ ، وهذا بعض ما جاء به من بعثه الله ليتمم مكارم الأخلاق .

لقد بلغ من عنايته صلى الله عليه وسلم بالجوار أن نفي الإيمان مقسماً بالله ثلاثاً ممن لا يأمن جاره شره وغوائله (١) ، فقد روى الشيخان عن أبي شريح وأبي هريرة رضى الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن ، والله لا يؤمن » ، قيل : من يا رسول الله ؟ قال : الذي لا يأمن جاره بوائقه . ومن دلائل العناية بالجوار ما رواه الشيخان أيضاً عن ابن عمر وعائشة رضى الله عنهما قالوا : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ما زال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيورثه » .

ومن دلائل العناية بالجوار — وما أكثرها — اختلاف الأساليب النبوية في الوصية بالجوار والحرص عليه ؛ فمنها ما جاء في البخاري « من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم جاره » ، ومنها ما جاء في مسلم « فليحسن إلى جاره » ، ومنها ما جاء مفصلاً لهذا الإكرام والاحسان في أحاديث كثيرة يؤيد بعضها بعضها ، منها ما أخرجه الطبراني عن معاذ بن جبل رضى الله عنه « قالوا يا رسول الله : ما حق الجار على الجار ؟ قال : إن استقرضك أقرضته ، وإن استعانك أعنته ، وإن مرض عدته ، وإن احتاج أعطيته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابه مصيبة مصيبتة عزيتة ، وإن مات اتبعت جنازته ، ولا تستطيل عنه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بأذنه ، ولا تؤذيه بريح قدرك إلا أن تعرف له منها ، وإن اشترت فأكمة فأهد له ، وإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا تخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده » .

وإذا كان الجار يشمل المسلم والكافر ، والمعبود والفاسق ، والصديق والمعدو ، والنافع والضار ، والقريب والأجنبي ، والقريب والبلدي ، والأقرب والأبعد ، إلى أربعين داراً من كل جانب ، فإن الاحسان إليه يختلف باختلاف السعة والحال ، وكلما كان أقرب جواراً كان أعظم حقاً ؛ أخرج الطبراني عن جابر رضى الله عنه مرفوعاً « الجيران ثلاثة : جار له حق وهو المشرك ، له حق الجوار ؛ وجار له حقان وهو المسلم ، له حق الجوار وحق الاسلام ؛ وجار له ثلاثة حقوق ، مسلم له رحم ، له حق الجوار والاسلام والرحم » ، وروى البخاري عن عائشة رضى الله عنها قالت : « قلت يا رسول الله : إن لي جارين ، فألى أيهما أهدي ؟ قال : إلى أقربهما منك باباً » .

(١) لأن إيذاء الجار لا يتفق مع الإيمان الحق ، بل هو من موجبات الكفر ، والبياد بالله .

وأقل ضروب الاحسان إلى الجار كف الآذى عنه ، ودفع سيئته بالتي هي أحسن ، كما يشير إليه هذا الحديث . وكف الآذى عن الجار أساس خير كثير ، وفضل عظيم ؛ اللهم إلا أن تنتهك حرمة الله فينتقم الله بها ، وليس هذا من الإيذاء في شيء ، بل هو من الإصلاح والخير ، ومما يدخل في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذلك من صفات المؤمنين .

ولما كانت المرأة من الرجل أقرب الجيران صلة كانت أعظمهم حقاً وأولاهم بحسن المعاملة وكرم الجوار ، ومن ثم خصها النبي صلى الله عليه وسلم بمزيد العناية إذ ذكر الوصاة بها (١) ووكد المطف عليها ، والتجاوز عن هفواتها ، وعلل ذلك بأنها خلقت من ضلع أعوج ولا سبيل إلى تقويمها إلا أن تكسر ، وكسرها طلاقها ، فن ابتغى لها كلاً مطلقاً فقد طلب المحال وصبح في عالم الخيال ، وأضاع جهده سدى ؛ فليستد وليقارب ، وليتغافل عن هفواتها ما لم تتعد طورها ، وتسرف في غيها ، وإلا هذبا بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقومها بما يدعو إليه العدل والانصاف ، دون أن يتعدى حدود الله .

وفي خلق المرأة من ضلع تأويلان : قيل إن حواء خلقت من ضلع آدم عليه السلام ، أي أخرجت منه كما نخرج النخلة من النواة ، وبهذا قال كثير من العلماء ، واختاره صاحب قصص الأنبياء ، في تفسير قوله تعالى « يا أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها » (٢) وهذا ما جاء في التوراة التي بيد الكتابيين الآن « فأوقع الإله الرب سباتاً على آدم ، فنام فأخذ واحدة من أضلاعه وملاً مكانها لحماً ؛ وبني الرب الإله الضلع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم ؛ فقال آدم هذه الآن عظم من عظامي ولحم من لحمي تدعى امرأة ، لأنها من امرئ أخذت » .

والتأويل الثاني أن الكلام على التشبيه والتمثيل ، أي أنها خلقت خلقاً فيه اعوجاج كأنها أنشئت من أصل معوج ، فلا سبيل إلى الانتفاع بها إلا بمدارطتها والصبر عليها ، وذلك من قبيل قوله تعالى « خلق الإنسان من عجل » تمثيلاً لما طبع عليه الإنسان من العجلة والطيش حتى كأن العجل مادة أنشأه الإنسان منها . واختار هذا الوجه بعض المحققين من القدماء والمحدثين . وبعاضهم فيما ذهبوا إليه ما جاء في رواية البخاري التي ذكرناها آنفاً « المرأة كالضلع » الخ ، هذا إلى ضعف الأدلة على الوجه الأول وعدم قيامها على ساق ؛ وقد أمرنا ألا نصدق أهل الكتاب ولا نكذبهم فيما لم يرد فيه عندنا نص صريح ، ففي حديث البخاري عن

(١) يؤثر عن علي رضي الله عنه أن الزوجة هي المرادة بالصاحب بالجنب في قوله تعالى « والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب » . (٢) وقيل مناه . من جنسها وطى صورتها وهيئتها فلا تعرض إذا للادة التي أخذت منها المرأة .

أبى هريرة رضى الله عنه مرفوعاً « لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله ». وهذا يرجع عندنا أن نفوض أمر المرأة الأول إلى بارئها عز وجل .

وأياً ما كان خلقها فلا جدال أن المقصود من الحديث بيان ضعف المرأة ، وما جبلت عليه من العوج والاضطراب ، فهي معذورة فيما تأتي وتذر إلى مدى غير قريب ؛ وإذا كان أمرها كذلك لحق على صاحبها أو وليها أن يأخذها بالرفق والحلم والآناة ، وأن يساعدها على صفاء العيش واستقرار الحياة .

وفى قوله صلى الله عليه وسلم « وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه » إشارة إلى أنها خلقت من أشد أجزاء الضلع اعوجاجاً فيكون ذلك أدعى إلى العطف عليها والرفق بها ؛ أو إشارة إلى موضع الأذى منها وهو لسانها الذي ينبغي لها أن تتقيه ، وأصاحبها أن يتصام عنه ما استطاع .

ثم أشار صلى الله عليه وسلم إلى أنه مهما بالغ في الرفق بها لا يتركها وشأنها ، وإلا فسدت وأفسدت واستعصى علاجها ، بل ينبغي تقويمها وتعديلها كما يقوم الضلع المعوج ، فلا يبالغ في تقويمه فيكسر ، ولا يهمله كل الإهمال فيبطل دهره أعوج . ثم كرر الوصية بها مبالغة في الرفق ، وإعذاراً إلى الرجل .

ونرجو أن يعتبر الغلاة في شأن المرأة بهذه الوصاة النبوية وأمثالها ، وينظروا بعين الإينصاف إلى هذا التحليل النفسى الدقيق ، وإلى هذه الرحمة المحيطة الشاملة ، وإلى تلك الحكمة البالغة في حسن المعاملة وكرم الجوار ، ثم ليحكموا بعد ذلك للإسلام أو عليه ، في نظره إلى المرأة وأبن وضعها ؟ .

وقد يكون من الحسن أن نختم الحديث بتلك الإشارة اللطيفة التي أشار إليها صاحب بهجة النفوس إذ قال رحمه الله : وإذا وكد النبي صلى الله عليه وسلم حق الجار مع الحائل بينه وبين جاره ، وأمر بحفظه وإيصال الخير إليه ، وكف أسباب الأذى والضرر عنه ، فانه ينبغي أن يراعى حق الحافظين للذين ليس بينه وبينهما جدار ولا حائل ؛ فلا يؤذيهم بإيقاع المخالفات ، في مرور الساعات ؛ فقد جاء أنهما يصران بوقوع الحسنات ، ويحزنان لوقوع السيئات ؛ فيلجئ صراعاة جانبهما وحفظ جوارهما بالتكثير من الطاعات والابتعاد عن المعاصي ، فهما أولى برعاية الحق من سائر الجيران ؟

طه محمد الساكت

المدرس بالأزهر

المشكلة الفلسفية العظمى

التأليه العقلي

- ٢٧ -

المظهر التنسكي لفكرة الألوهية

تنسك الهنود المعصرين

طريقة الجيفيانا :

عقد متنسكو هذه الطريقة كل آما لهم على المعرفة العقلية النقية ، وقد صمموا — مركزين قواهم متطلعين نحو غايتهم العظمى — على أن يتخلوا بغنة عن كل ما هو واقعي أو ما يبدو في الظاهر ويقع تحت الحس ، وليس لهم من ذلك سوى هدف واحد وهو معرفة المطلق أو الإله اللامشخص . ولا ريب أن المتنسكين من اليوجيين الذين اختاروا هذه الطريقة يبدون لمن حولهم كأنهم أموات في صور الأحياء 'يصوِّنون' نظراتهم اللاشخصية واللامحددة إلى عالم هو في نظرهم أدنى إلى الأشباح منه إلى الحقائق الثابتة ، أو كأنه خواء مطلق غير قين بالاكتراث . وبالأجمال : قد انتزعوا أنفسهم من جميع العلائق الداخلية والخارجية وتجردوا حتى عن الحب الإلهي الذي يرافق في النفس عبادة الرب المشخص ، وهذا طبيعي مادام أنهم يحتقرون الصلوات وكل أنواع العبادة التي تنطق بالأصوات ، وجميع المظاهر التي تشف عن الطقوس الدينية كالآناشيد والأغاني والموسيقى الدينية والأذكار والرقصات التعمدية ، وفوق ذلك فإنهم يمتنعون « الأدفايتا » « l'Advaita » التي هي أضيق صور « الفيدانتا » (١) « Védanta » وأشدّها تجردا ، وهي عقيدة متشددة تصعد على سلم الماضي إلى ما وراء عهد « الأوبانيشاد » ومن أشهر ممثليها المتأخرين « سانسكرام » « San kara » الذي عاش في النصف الثاني من القرن الثامن بعد المسيح وكان من أعظم فلاسفة الهند على الإطلاق . وتتلخص تعاليم هذه الأدفايتا في القول بلا وجود الاثنائية بتاتا ، وتقرر أنه لا يوجد غير حقيقة واحدة ، وهذه الحقيقة ليس لها أية صفة تجعل حدها ممكنا أو تساعد العقل البشري على وضع حد يعينها . ولهذا كان سانكراكلما عرض عليه حد للإله مؤلف من الإيجابيات قال : كلا ، إنه ليس ذلك ، وهذا يذكرنا بمبدأ الأفلاطونية الحديثة الذي كان يحدد كل تعريف منطقي إيجابي بإزاء الواحد الأوحد الذي أثر في فلاسفة الاسلام فحملهم على وجود التأليف بالقول الشارح في جانب الباري ضمن ما جحدوه من التأليفات الخمسة التي ألمعنا إليها سابقا .

(١) الفيدانتا هي إحدى المدارس الدينية الهندية ، وإذا أردت الاطلاع بها فارجع الى صفحة ١٧٥ وما بعدها من كتابنا « الفلسفة الشرقية » .

ومهما يكن من الأمر فإن كل ما يبدو أنه موجود ، وهو عالم حواسنا وعقولنا ، ليس — في نظر أشياخ هذه الطريقة — سوى الواحد المطلق ، ولكن جهلنا قد كان منشأ إدراكه على صورة زائفة ، وهم يرمون من وراء سلوكهم هذا إلى هدف معين ، وهو تحقيق ذلك الواحد المطلق ، ولكن الأعمال الخيرة فيما يمتقدون عاجية عن إيصال أربابها إلى بغيتهم ، وإنما أقصى ما تستطيع هذه الأعمال أن تؤديه هو تهيئة الظروف الملائم الذي يمكن أن ينبجس فيه معين المعرفة ، وهذه المعرفة هي وحدها التي يمكن أن تخلص النفس من أسرها ، وتنتقذها من وهبتها ، بشرط أن تكون معرفة مباغطة منبثقة عن البصيرة الكاشفة .

على أنه مهما تكن هوة الواحد لدى هؤلاء القوم شاسعة هائلة إلى حد إمكان ابتلاع الكون في أعماقها ، فإن الذين لا شك فيه هو أن سحر هذا المبدأ — على حد تعبير الكاتب رومان رولان — كان ولا يزال منعدم النظير من حيث التأثير في نفوس المنسود ولا سيما الصفوة الممتازة منهم .

غير أن هذه الطريقة الفاسية لم تظل على حالها ، وإنما حدث فيها رد فعل جعل تعاليمها أميل إلى السمولة واليسر من الأورثوذكسية الأولى . ومن ممثلي هذا التجديد « رامانوجا » Ramanuja الذي عاش في القرن الثالث عشر بعد المسيح ، وموجز ما استحدثه هذا الزعيم في طريقة أسلافه — مع اعترافه بوحدة الحق الواحد — لم يكن يرى أن النفوس الفردية ظواهر خادعة أو عابثة كما كان الأولون يفررون ، وإنما كان يرى أنها مظاهر حقيقية ضرورية للوحد بقدر كون الواحد ضروريا لها . وعن طريق هذا التلازم المتبادل بين أحقية الواحد للنفوس ، ومظهرية النفوس للواحد ، قد نشأ تيار من الحب وهو الذي جعل يُشتمل الهند برحيته كل هذه الأزمنة الطويلة ، وهكذا طفق هذا الحب يتطور حتى انتهى إلى الاتحاد الذي هو غاية الطريقة الثانية .

طريقة الباكتا :

تدعى هذه الطريقة بطريقة الحب ، إذ أنها تقتاد معتنقيها إلى الإله المتشخص ، أو هي على الأقل تستغرق زمنا طويلا حتى تصل بهم إلى نتيجة طريقة الجيفيانا ، وفي أثناء هذا السير ، أي قبل انتهائهم إليها ، تتبع تعاليمها الخاصة بها ، وأهم ما تشتمل عليه هو الاتصال المباشر بين النفس الإلهية والنفس الانسانية في تفضل وإحسان من جانب الأولى ، وفي ثقة ومحبة من جانب الثانية أي — بفضل تضحية بسيطة تتمثل في التخلي عن الذات — هي تتحد مع الحب نفسه .

يبدأ الباكتي أو المعارف عن طريق الحب صموده إلى مراتب الوصول باختيار مظهر من مظاهر الإله يكون قد عثر فيه على مثله الأعلى ، فإنهم له هذا الاختيار ركز حبه في هذا المظهر وانغمس فيه بكلية ، وبهذا يسمو شيئا فشيئا حتى يظفر برؤيته وسماعه والتحدث إليه وإذ ذاك يكون حسبه أن يكرس جانبا ضئيلا من قواه الإدراكية ، ليشعر بحضور إلهه على صورة حية بارزة .

ولما كان موقعنا بأن مولاه مستول على جميع المظاهر الإلهية الأخرى فإنه لا يلبث أن يدرك انبثاقها كلها وأن يراها تشع من إلهه أو من المظهر الذى اختاره له ، وعند نهاية هذه المرتبة تتغلب تلك الانكشافات على كل ماعداها وتحتل فراغ نفسه فتحجب عنها العالم الظاهرى ، ولكن الغيبوبة إذ ذاك لا تكون تامة ، وإنما يكون الناسك فى حالة الانجذاب ، لأن العقل حينئذ يكون لديه بقية من تفكير يدرك به العالم الباطنى .

ومن آيات ذلك أنه يستمتع فى تلك الحالة بشعوره باتحاد نفسه مع الإله ، وينبغى أن تعرف أن كثيرا من الباكثيين يظنون فى مرتبة الانجذاب أو الغيبوبة الدنيا ولا يصعدون الى ما هو أرفع منها .

ولكى يصل الناسك الى الدرجة العليا أو الغيبوبة التامة « السامادى » « Le Samadhi » يجب عليه أن يضيف الى مجهوداته السابقة مجهودا آخر وهو قطع تيار الفكر والتخيل الكامل عن الذات ظاهرها وباطنها ، وعند ذلك فقط يلتحق بالوحدة المطلقة أو يصل الى الاتحاد التام براهيمان . وهنا يصل الى مرتبة الفناء فى الإله اللاشخصى ، وهى غاية طريقة الجينيانا .

والآن إليك كيف يصور لنا أحد مريندى « راماكريشنا » ارتقاء أسناده الى الغيبوبة العليا أو الفناء الاقصى عن طريقة الباكثيين يقول :

« ... وهكذا انطفأ العالم ولم يعد للمكان أو للأين وجود ، وفى أول الأمر كانت أفسار كالظلال لا تزال تتموج وتمكس على جهة العقل المظلمة ، وجعل إدراك الانا الضعيف المتخاذل يتكرر بهيئة متماثلة ... ثم لم يلبث هذا أيضا أن انطفأ مع كل أثر للانثنية وصار المكان المنتهى ، والمكان اللامتناهى شيئا واحدا ، وفيما وراء الكلام ، وفيما وراء الفكر نحقق براهيمان فى (راماكريشنا) . »

غير أنه لما كان الناسك من الهنود يتحدثون عن الإله حينما كما يتحدث الناس جميعا ، وحينما آخر يصفونه بأوصافهم الخاصة ، فقد بدا ذلك فى نظر الباحثين على صورة التناقض ، ولكنهم أجابوا بأن هذا الاختلاف هو ظاهرى خسب ، وأن هذه التصويرات وتلك الأوصاف ليست إلا مظاهر لحقيقة واحدة ، ومنشأ تعددها هو تباين الحثيات والاعتبارات . ولقد استطاع أحد أولئك الذين وصلوا الى الغيبوبة العليا عن طريقة (باكثاكراما كريشنا) أن يرسم لنا شعوره وتفكيره فى حالتى الانجذاب والصحو فقال : « عند ما أفكر فى الموجود الاسمى ككائن لا إيجابى ، ولا خالق ، ولا مبدى ، ولا مدمر ، أدعوه براهيمان أو يوروشا ، أى اللامتشخص ، وعند ما أفكر فيه ككائن إيجابى خالق مبدى مدمر ، أدعوه ساكتى ، أومايا أو براكريتى (وهو القوة أو روح الطبيعة) أى الإله المتشخص ، ولكن التمييز بينهما لا يحمل بين ثناياه أى فرق ، وإنما المتشخص واللامتشخص هما ذات الموجود كاللبن ولباضه والماسة واللائها . »

المركنور محمد غريب

أستاذ الفلسفة بالجامعة الأزهرية

بعض الجديد من فوائد الصوم :

الصوم والتربية الحديثة

تقوم التربية الصحيحة على ثلاث قواعد أساسية لا تكمل شخصية الشخص إلا إذا تكاملت فيه هذه القواعد، وهي الصحة الجيدة، والخلق الكامل، والتعليم. وهذه الصفات تفتقر كل واحدة منها إلى الآخرين من ناحية فتتويعن عليهما من ناحية أخرى، فالمرء لا يعرف أسباب الصحة ومقومات السلوك إلا بالتعليم، ولكن التعليم يفتقر إلى الصحة، فهو لا يأخذ طريقه إلى عقل المتعلم وقلبه إذا كان ضعيف الجسم مهتم البناء، وضعف البنية هذا كثيرا ما ينعض في العلم ويصرف الناشئين عنه فضلا عن قلة فائدتهم منه إذا أكرهوا عليه، وافتقاره إلى الخلق الحسن أوضح؛ فالخلق هو الذي يحمل صاحبه على العمل، وكثيرا ما يتخذ المتعلم علمه أداة للضرار بالناس، ووسيلة للتفنن في الإبداء إذا لم يعصمه من ذلك خلق جميل. أما توقف الأخلاق على الصحة فأمره بين؛ فالشخص الضعيف الجسم كثيرا ما يخرج منه ضعفه هذا عن خلقه العادي وهو يغضب بسرعة وينفعل لا وهي الأسباب، ويقعده ضعفه عن كثير من واجبات الأخلاق، ويكاد التعليم يكون أسهل هذه الصفات وأقربها منا لا لطالبه؛ أما الصحة والأخلاق فطلبهما شاق وحاجتهما إلى مهارة المربي وقدرته على تكوين الناشئين أكثر، ولذا فإن التربية الحديثة ترمي إلى هذين الغرضين أكثر مما ترمي إلى التعليم، وتحصيل العلوم أمر ثانوي بجانب ما يتركه هذا التحصيل من أثر في خلق المتعلمين. ومن السهل جدا على ذى الخلق الحسن والصحة الجيدة أن يحصل من العلوم على المقدار الذي يريده إذا ساعدته عقايته وذكاؤه، ولكنه ليس من السهل على المتعلم مهما وسع من العلم أن يفيد من علمه صحة وخلقاً، فهما يتوقفان على ناحية عملية ومادات حسنة تبدأ من عهد الطفولة. والصوم، على هذا، منبع صاف من منابع التربية الحديثة؛ فالصفتان الهامتان لدى علماء التربية يكونهما الصوم ويساعد على كمالهما. أما الصحة الجسمية وأثر الصوم فيها فقد شبت بمحنا وفرغ الطب منذ عهد بعيد من أن في الصوم وقاية من كثير من الأمراض، كما أن فيه علاجا لبعضها، وهو مع هذا يهيء للجسم فرصة للاستجمام يتخلص فيها من كثير من الفضلات والسموم الضارة به، ويستفيد بسبب ذلك قوة ومناعة.

وأما كمال الأخلاق فإن الصوم يعتمد في أدائه على الصفة التي تعتمد عليها التربية الخلقية وتعدّها إدامة الأولى في بناء الأخلاق، وهي القدرة على ضبط النفس. فعلماء الأخلاق والتربية يهيمون أن يكونوا في الناشئ هذه الصفة، صفة القدرة على ضبط النفس وكبحها عما يجمع إليه من ملاذ غير مباحة؛ فالشخص حين لا تكون له سيطرة على نفسه يستطيع بها

أن يحملها على بعض الأفعال وأن يردها عن بعض آخر لا يستفيد شيئاً من النصائح الخلقية التي تسدى إليه ، ولا يكون مأمون العثار فيما يواجهه من مزالات ؛ فقد يعلم جمال الصدق ومزاياه وأثره الطيب في صاحبه ولكنّه مع هذا قد يحلو له أن يمدح نفسه فيختلق ما ليس فيه ، أو يحب أن ينال من عدوه فيعيبه بما هو برئ منه ، ومنشأ ذلك عجزه عن ضبط نفسه والوقوف بها عند الحد الذي علم ، وهو بذلك لم يستفد مما علم شيئاً . وكثير من الناس يرتكبون الرذائل غير راضين عن أنفسهم فيما يفعلون ، آسفين على ما اقترفوا منها ، وقد يشتد أسفهم وعتابهم أنفسهم عليها بعد أن يفعلوها ، ولكنهم مع هذا يعودون إليها من جديد متى جمحت بهم شهواتهم إلى ارتكابها ، وحالهم في الثانية هي حالهم في الأولى من الأسف والتألم ، فلو أن لديهم قدرة على ضبط أنفسهم وردها عن فعل هذه الرذائل لاستطاعوا أن يلتفتوا بما علموا وظلوا في حدود الخلق المستقيم .

ومن هنا سلكت التربية الحديثة طرقاً كثيرة لتهديب الأخلاق في الناشئين تسمى طرقاً غير مباشرة لأنها لا تهدف إلى خلق معين ولا إلى الأخلاق بالذات ، ولكنّها تساعد كثيراً على الأساس الذي تبني عليه فضائل الأخلاق ، وهو استطاعة الشخص أن يوجه عاطفته وراء عقله ويخضع شهواته لقضايا المنطق ؛ فأنواع النشاط المدرسي من ألعاب رياضية ورحلات وتكوين الجماعات المختلفة لها كلها أغراض خاصة تعمل من أجلها ، ولكن ينتج عنها دائماً آثار خلقية جميلة ، لأنها تكون في الناشئ قدرة على ضبط نفسه ، فالتربية الحديثة لا تنزع بإساءة النصائح وقراءة العظات ، ولكن تهتم بالناحية العملية . وعلماء الأخلاق يذكرون من طرق تكوين الخلق الحسن طريقة تسمى طريقة الممارسة يمثلون لها بالصوم نفسه ، فهو أقرب طريق يشعر الصائم بما يمانيه الجوع والمعوزون من مشقة وهوان ، وإكراه الصائم نفسه أن يتخلى عن ملذاتها وشهواتها شهراً كاملاً لا بد أن يترك في نفسه أثراً طيباً يمكنه من الصبر على ترك ملذات أخرى يحفل بها أن يتخلى عنها . على أن الشريعة الإسلامية حتى في غير الصوم عنيت بهذه الصفة ، صفة القدرة على ضبط النفس ، ففي الحديث « ليس الشديد بالصرعة إنما الشديد من يملك نفسه عند الغضب » .

يتلاقى الصوم والتربية في ناحية أخرى ؛ فالتربية تعني بأن يعيش الناشئ في بيئة مشبعة بالأخلاق ، وأن يحيا هو في جو خلقي ، فليس يجدي عليه أن تحمله على الأمانة وتبيح له الكذب أو تكذب أمامه ، أو تحاول أن تمنع فيه الشجاعة وهو يحيا بين قوم بخلاء أو على الأقل يبيعون له البخل ، فلا بد لتكوين خلق ما أن تكون ثم عناية بالأخلاق الأخرى . والصوم نموذج جميل لهذا الغرض الذي تنشده التربية ، فأقل الصائمين مشوبة وأجرا هذا الذي يقتصر من الصوم على الجوع والظماطيلة نهاره غير عابئ بشرائط الصوم الأخرى من

التخلق بالخلق الجميل والصبر على المسكاره . . . فالشارع قد أحاط الصوم بهالة وضيئة من العادات النبيلة ، وحث الصائم على كثير من فضليات الخلال .

فقد جعل الصيام « جنة لصاحبه فلا يرفث ولا يفسق ، وإن امرؤ خاصمه أو شاعه فليقل إلى صائم مرتين » ولامر ماسنت صلاة التراويح في رمضان ، وفرضت في آخره زكاة الفطر ، وقد كان صلى الله عليه وسلم : أجود ما يكون في رمضان حين يأتيه جبريل عليه السلام فيدارسه القرآن . فالصائم يعيش في جو كله أخلاق ، وكله طهارة ، وروحية تسمو به فوق الماديات .

ستم

وناحية أخرى في الصوم لها أثر قوى في أخلاق الصائمين ، وهي أن الصوم أمانة فيما بين العبد وبين ربه ، يستطيع الصائم أن يتواري عن الناس ويفطر ولا يشعر أحد بفطره فهو صائم عند الناس ومفطر عند ربه ، وقد يخفى حالته هذه مدة كبيرة ، وتلك حال لا تتأتى في العبادات الأخرى ؛ فمن الصلاة ما لا يكون إلا في جمع وجماعة ، وتكرارها يجعل إظهارها لا بد منه ، والزكاة منحة من الغنى للفقير لا بد أن يعلم بها وهكذا . . . أما الصوم فانه يقوم على الأمانة وحدها ، ومرده إلى ضمير الصائم وخلقه . وقد جاء في الحديث القدسي « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فانه لي وأنا أجزي به » .

يبدو من كل ما تقدم أن الغرض من الصوم إنما هو الناحية الخلقية والروحية التي تجعل المرء منيبا إلى ربه متساميا بنفسه فوق الماديات ، وكل صوم لا يتجه به صاحبه بهذا الاتجاه هو صوم قليل الجدوى إن رفع عن صاحبه العقوبة لا يستتبع المنوبة ، وأى مثوبة لهذا الذي يكف عن المفطرات المادية مستبيحا لنفسه أن يسب ويغضب ويشور وقد يكذب أو يغتاب ، فقد أفسد الغرض المنشود من الصوم وجعل البيئة الخلقية الطاهرة قبيحة مدنسة ، ثم هو إخلال بالصفة الأساسية للاخلاق ، وهي القدرة على ضبط النفس ، فهو صوم لا فائدة فيه . وانظر إلى الحديث النبوي « من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه » . فترك الطعام والشراب عمل لا جدوى وراءه إذا لم تصحبه مكارم الأخلاق ؟

عبد الجليل سلمي

المدرس بالمعاهد الدينية

بحث في مقارنة القوانين الوضعية

بالشرعية الإسلامية الفراء

المانع الرابع : القرابة . وهي على أنواع (١) القرابة الطبيعية : كان الزواج بالأقارب محموتا ومبغوضاً لدى الرومان ، وكذلك لدى الكنيسة ولذا كان محرماً . ولقد تأثر القانون الروماني في أواخر عهده تأثراً كبيراً بتماليم المسيحية فأصبح محرماً بين العم أو العمة أو الخال أو الخالة وبين أولاد الأخ أو الأخت ، وهذا كان في عصر الامبراطورية الثانية ، كما حرم الزواج بين أولاد العم أو أولاد الخال أو أولاد العمة أو أولاد الخالة الأشقاء ، وكذلك إخوة أو أخوات أحد الزوجين وبين إخوة أو أخوات الزوج الآخر . وتمكن هذا التحريم الصارم وقوى أمره في القانون الكنسي حتى شمل تحريم الزواج بين أقارب النسل الواحد البعيدين في القرابة جداً . وعلى هذا يحرم الزواج بين الأصول والفروع مطلقاً ، وكذلك بين الحواشي ، ولكن بالنسبة لتحريم الزواج بين الحواشي كان نظرياً لا عملياً حيث كان التحريم لا يتعدى الدرجة السابعة ، وما وراء هذه الدرجة فالقانون الروماني في أواخر عهده لا يرى مانعاً من الزواج .

وبلاحظ أن حساب درجة القرابة يختلف لدى كل شعب حسب عوائده ، فللجرمانيين طريقة خاصة في العد ، وعلى حسب طريقتهم قد يصل تحريم الزواج بين الأقارب إلى درجة كبيرة مبالغ فيها جداً ، إذ الدرجة السابعة عندهم تطابق الدرجة الرابعة عشرة عند الرومان . وقد أخذت الكنيسة بالطريقة الجرمانية واختصت بها وطبقها على من يدينون بدينها . وإنه بصرف النظر عما ورد من النصوص في مواد التحريم فإن الكنيسة دعمت تحريم الزواج بين الأقارب على أسباب أخرى مثل (١) العوامل الفسيولوجية ، إذ التزوج بالأقارب يضعف النسل ويجعل الجسم عليلاً قابلاً للأمراض ، بل قد يؤدي إلى الانقراض (٢) ومثل العوامل الأخلاقية ، إذ التزوج بالأقارب قد يترتب عليه غالباً شقاق بين أفراد العائلة (٣) ومثل العوامل الاجتماعية ، فإن الزواج قد ينشأ عنه رابطة بين العائلتين . وقد قال القديس أوجسطين : « يجب أن يكون الزواج بذرة مودة ووئام ، ورابطة حب ودوام ، والأجانب هم أحوج إلى ذلك ، وأما أفراد العائلة فتكفيهم رابطة قرابته الناشئة من القرابة بالدم » .

طريقة حساب درجة القرابة :

لدى الرومانيين : تحسب درجة القرابة بين شخصين بالارتقاء في أصول أحدهما حتى تصل إلى جد مشترك بينهما ، وتعده هذه الأصول بدون عد الجد المشترك ، ثم يهبط من الجد المشترك

إلى الشخص الآخر ، وتعد أصوله أيضاً من غير عد الجدة المشترك ، فمجموع العددين يبين درجة القرابة بين الشخصين المذكورين ، فمثلاً إذا أردنا أن نعرف درجة القرابة بين ابني عمين مثلاً نأخذ أحدهما فنجد أن بينه وبين أبيه درجة ، ثم نصعد من الأب فنجد الجدة وهو جد لابن العم الآخر ، فبين الأب وبين الجدة المشترك توجد درجة أخرى أيضاً ، وعلى هذا يكون بين ابن العم المذكور وبين جده درجتان ؛ وإذا نزلنا من الجدة المشترك إلى ابن العم الآخر وجدنا أيضاً درجتين ، فتكون مجموع الدرجات أربعة ، وعلى هذا تكون درجة القرابة بين ابني العمين المذكورين هي الدرجة الرابعة ، وتكون درجة القرابة مثلاً بين الأخ وعمه هي الدرجة الثالثة وهكذا ، وهذه الطريقة تشبه درجات السلم الذي له جانبان يصعد من أحد جانبيه بعد درجاته إلى الدرجة المشتركة بين الجانبين ، ثم يهبط على الجانب الآخر فنعد درجات الجانبين من غير عد الدرجة المشتركة ، فعدد الدرجات يبين درجة القرابة .

لدى الجرمان : البربر أو الجرمان كانوا يعدون درجة القرابة بالطبقات ، ويشبهونها بأعضاء وصل أجزاء الجسم العليا ، وتشبه هذه الطريقة طريقة عد الأظفار على الأصابع ، فالرأس تمثل الزوجين ، والكوطن يمثلان الأولاد ، والكتفان يمثلان أولاد الأولاد ، والعنق أولاد أولاد الأولاد ، والكف وسلاميات الأصابع تمثل ما بعدهم ، وما بعد هؤلاء من الأقارب يمثلونهم بالأظفار ، وعلى هذا توجد سبع طبقات أو درجات من الأقارب ، ولو قارنا الطريقة الرومانية بالطريقة الجرمانية لوجدنا أن الدرجة السابعة عند الجرمان تطابق الدرجة الرابعة عشرة عند الرومان ، وينقطع حبل القرابة بعد هذا ، ولا مانع حينئذ من الزواج بين الأقارب الذين هم في درجة أبعد من الدرجة السابعة أو الدرجة الرابعة عشرة ، إذ في هذه الحالة تعتبر القرابة مجهولة ولا يبحث فيها .

وكما قلنا إن الكنيسة اتخذت لنفسها طريقة الجرمان ، فانه بناء على ذلك يحرم الزواج بين أولاد العم ، إذ هم يعتبرون حينئذ في الدرجة الثانية ، ومع ذلك إذا أصبحت عشرة الزوجين وحياتهما في حالة لا يمكن الاستمرار فيها وتحتم وجوب الانفصال بينهما فإن رجال الكنيسة كانوا يتلمسون حيلة لاعتبار الزواج باطلاً وكأنه لم يكن ، فيبحثون عما إذا كانت توجد قرابة ما بين الزوجين ولو تجاوزت الدرجة السابعة حيث كان الأصل هو حرمة الزواج بين الأقارب مطلقاً ، فإذا وجدت قضوا باعتبار الزواج كأن لم يكن وتنفصل وتنحل الزوجية ، وهذا بناء على أن الكنيسة لا تقبل مبدأ الطلاق كما أوضحنا سابقاً ، وكانت هذه الحيلة تعتبر مجاملة من جانب القضاء ، وليس من النادر وقوع مثل هذه الحالة ، فانه بعد مضي سنين طويلة من المعاشرة الزوجية يفصل الزوجان بهذه الطريقة ، وكانت العامة تطلق على هذا الانفصال اسم الطلاق ، بينما رجال القانون الكنسي يسمونه ببطلان وإلغاء الزواج ، ولما أحست الكنيسة بأنها قد

شطت وغلت كثيرا في التمسك بالطريقة الجرمانية بدأت في معالجة هذه الحالة فتساهلت في حرمة الزواج إذ كانت تمنح كثيرا من النصاريح مجاوز الزواج في حدود الدرجة السابعة وما قبلها . وفي سنة ١٢١٥ حدد مجمع لانران تحريم الزواج بالنسبة للحواشي في حدود الدرجة الرابعة وما قبلها طبقاً للطريقة الجرمانية ، متعلقة بـعلة غريبة وهي أنه يوجد بالجسم أربعة أنواع من الاخلاط ، ومع ذلك فإن هذا التجديد لم يخل أيضاً من المغالاة ، ولذا استمر إعطاء نصاريح الزواج بالدرجة الرابعة وما قبلها قائماً كالعهد السابق .

(ب) القراة المدنية : وهي التي تنشأ من التبني ، وحكمها حينئذ حكم القراة الطبيعية .

(ج) القراة الروحية : وهي التي تنشأ من التعميد ، فيعتبر الشبين أو العراب كآلاب

للطفل الذي عمده ، والشبينة أو العراة كأم للطفل المعمد ، وهذا الاعتبار اعتباراً روحياً فيحرم الزواج بين الطفل المعمد وهذين الشخصين ، ومن جهة أخرى يعتبر هذان الشخصان كأخوين فيحرم حينئذ الزواج بين الشبين والشبينة . وقد توسعوا في هذا المانع الروحي حتى شمل أحوالاً أخرى ؛ ففي القرن الثامن عشر حرم الزواج بين الشبين أو الشبينة وبين والدي الطفل المعمد ، ولكن حصل لهذا التحريم رد فعل يشابه ما حصل في القراة الطبيعية حيث تمحدت من الوجهة العملية آثار هذه القراة فأصبح الزواج بين الشبين والشبينة جائزاً من الوجهة العملية الفرنسية في عصر الملوكية .

(د) المصاهرة : تنشأ المصاهرة بين أقارب الزوج وأقارب الزوجة إذا حصل بالزواج

دخول ، ونصير أقارب كل من الزوجين كتلة واحدة ويرتبطون فيما بينهم ، ويحرم زواج بعضهم لبعض كالقراة الطبيعية ، ولكن منذ أن انعقد مجمع لانران سنة ١٢١٥ تحدد هذا التحريم واقتصر أمره لغاية الدرجة الرابعة بالنسبة للحواشي .

وتنشأ أيضاً المصاهرة بين أقارب الزاني وبين أقارب من زنى بها هذا الزاني ، فيحرم الزواج بينهم ، ولكن هذا التحريم اقتصر فيما بعد على الدرجتين الأولى والثانية طبقاً لقرارات مجمع الترانس .

(هـ) وهناك مانع يسمى بالأمانة العامة L'honnêteté Publique

وينتج هذا المانع من الخطبة ، فيحرم الزواج بين أحد الخطابين وأقارب الآخر ، إذ تعتبر الخطبة شبه زواج ، ولكن مجمع الترانس قصر التحريم على الدرجة الأولى فقط وشرطه بصحة الخطبة وزواج لم يحصل به دخول بعد .

والقانون الصادر في ٢٠ سبتمبر سنة ١٧٩٢ حرم الزواج في الأحوال الآتية

(١) في عمود النسب قراة ومصاهرة . (ب) في الحواشي بالنسبة للأخوة والأخوات ، واندثرت الموانع الأخرى الناشئة عن القراة . « يتبع »

صالح بكير

لا ، بل تحتاج الاسلامية الى دعاة

كتب فضيلة الشيخ أبو الوفا المراغي مقالين في مجلة الأزهر الغراء تساءل فيهما : هل تحتاج البشرية الى دعوات جديدة للإصلاح ؟ وأجاب عن هذا التساؤل بأن الاسلام دين كامل كفيل للبشرية كل ما تحتاج إليه من نظم لحياة سعيدة صالحة ، وسرد طائفة من تعاليم الاسلام مبينا مدى كمالها واتساقها مع روح الانسانية ، وخلص من ذلك الى أن العالم لو اتبع هذه النظم التي وضعها الاسلام لسادت المودة والأخاء بين الناس ولأصبح عالما مهذباً فاضلاً .

ومنذ شهور يكتب في مجلة الرسالة كاتب فاضل يشرح بعض تعاليم الاسلام ، ويبين مدى حاجة البشرية إليها ، ومدى كفالتها لسعادة العالم ، ويدافع عن بعض التشريعات التي يظن الجهلة والمغرضون أنها لا تتفق وكرامة الانسانية . وقد كتب من قبل ذلك ، وسيكتب من بعد ذلك كثيرون في صلاحية الاسلام لكل أمة وفي كل زمن ، وكفالتهم لمصالح العالم الاجتماعية والسياسية والخلقية والاقتصادية .

ولكن السؤال الذي يحوم على الألسنة هو : إذا كانت تعاليم الملة الاسلامية كذلك ، وهي كذلك ولا شك ، فلماذا لم تنمر ثمرة حتى في البلاد الاسلامية نفسها ؟ والجواب عن ذلك سهل ميسور ، وهو أن الاسلامية في حاجة الى قوم يؤمنون بالله واليوم الآخر ويتقون الله حق تقاته ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، ويجاهدون في الدعوة الى الله .

وإنا لنضع نموذجاً للداعية الصالح ، ولعلنا لا نغسك بمصباح « ديوجين (١) » لنفتش عنه .

وأول ما يجب أن يتوفر في الداعية أن يكون فقيهاً في دينه ، عالماً بأحوال الناس الذين يدعواهم ، خبيراً بنفوس الجماعات ، منقباً عن الأمراض الاجتماعية التي تنفث فيهم ، محتالاً لفهامهم هذه الأدواء بأدب ولياقة وحزم وبصيرة . وإنا لنشهد من ذلك ما يحز في النفس ، ويضيق به الصدر ؛ فهذا رجل يعيش بين فقراء مدقعين لا يجدون القوت إلا بشق الأنفس ، وهم يمانون من شظف العيش ، وخشونة الحياة ما لا يطيقه إلا أمثالهم من الصابرين المحتسبين ، وإذا وقف ليمظهم خنهم على الزهد في الدنيا ، وأمرهم بأن يعطفوا على الفقراء والمساكين وهذا متحذلق ، تقمر لا يعنيه من عظته إلا أن يبين مقدرته في الإنشاء ،

(١) ديوجين فيلسوف يوناني شهيد وهو يسير مصباحه في النهار فقبل له في ذلك فقال : أفتش عن رجل .

وصوغ الكلام ، وتشقيق العبارات ، ولا يهمهم أفهم القوم أم لم يفهموا ، وقد كنت سمعت خطيباً في بعض القرى ، ولم يكن في المسجد متعلم غيري ، وأشهد أني لم أفهم من عظته إلا القليل ، وأذكر أن مما قاله في هذه العظة : « كان العرب في جاهلية جهلاء ، وضلالة عمياء ، يركبون عشواء معقصة لا تسير بهم على المحجة ، ولا تنهج بهم لأحب الطريق » فثقل هذا وذلك لا يستطيع أن يقرر حجة الله في النفوس ، ولا أن يبلغ بها القصد .

ولعل أوجب من ذلك للداعية أن يكون صريحاً لا يخشى في الحق لومة لائم ، ولا يخاف إلا الله ، فلا يرهب ذا سلطان لسلطانه ، ولا يخنع لغاشم ، ولا يداهن ظالماً ، ولا يكون كذلك حتى يقوى يقينه في الله ، وحتى يطرح حب الدنيا من نفسه ، فلا يبالي بيد من كانت ، وحينئذ يجهر بالحق ، ويرفع صوته به .

روى أن أبا جعفر المنصور لقي سفيان الثوري في الطواف فضرب بيده على طاقه وقال : أتعرفني ؟ فقال سفيان لا ، ولكنك قبضت على قبضة جبار . قال : عظمى أبا عبد الله . قال : وما عملت فيما علمت فأعظك فيما جهلت ؟ قال : فما بمنعك أن تأتينا ؟ قال : إن الله نهى عنكم فقال تعالى « ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار » . ويمكننا بسهولة أن نصدق هذا الموقف من مواقف الزاهد العظيم سفيان الثوري إذا عرفنا أنه لم يلق للدنيا بالاً . وقد ذكرنا أن المنصور أرسل إليه فلما دخل عليه قال له : سئلت حاجتك ، قال : أوتقضيها يا أمير المؤمنين ؟ قال نعم . قال : حاجتي ألا ترسل إلى حتى آتيك ، ولا تعطيني شيئاً حتى أسألك . ثم خرج . فقال أبو جعفر : ألقينا الحب للعلماء فلقطوا إلا ما كان من سفيان فإنه أعيانا فراراً . وبسبيل من ذلك أن يكون العالم عزيز النفس أبي الضيم . وفي الأثر من لم يستعز بالعلم فليس بعالم . وهذه قصة المز بن عبد السلام رحمه الله تعطينا صورة واضحة لمزاة العلماء ، قالوا إنه لما أعطى السلطان الصالح اسماعيل الأفرنج مدينة صيداء ، وقلة الشقيف ، أنكر عليه قاضي الشام وسبدها الشيخ المز بن عبد السلام ، وترك الدطاية له في الخطبة ، ففضضه السلطان وأخرجه إلى مصر ، ثم أرسل إليه وهو في الطريق رسولاً يتلطف به في المودة إلى دمشق ، فاجتمع به ولأينه في الحديث وقال له ما يزيد منك إلا أن تنكسر للسلطان ، وتقبل يده ، فقال له الشيخ : يا مسكين ما أرضاه يقبل يدي ، فضلاً عن أن أقبل يده !

يا قوم أتم في واد ونحن في واد ، فمضى كان الواعظ على هذا المثال وصل وعظه إلى القلوب واستطاع أن يكون هادياً للناس ومرشداً ، ولسكن متى كان عبداً الدنيا بأكل العيش بالعلم ويكون فقهه — كما يقول الرافعي الكاتب — استخراج الدراهم من النصوص ، فإن دعوته لا نجد لها سميماً .

ومن أهم الصفات التي يجب أن تكون في الداعية الى الله ، أن يكون هو مثلاً صالحاً ، ولن يؤثر القول ثمرته حتى يكون عمل صاحبه مصداقاً له ، فالناس يعرفون الحرام والحلال ، ويدركون الواجب والمندوب والمستحب ، ولكنهم يريدون مثلاً ناطقةً يخذونها ، فهم للاصحاء أكثر استجابة منهم للائقوال ، وكم من قول لا يأخذ من نفس سامعه مأخذاً لانه يرى صاحبه يرهانا على كذبه ، وكم رذيلة يقبحها العالم في نفوس الناس فلا تزداد عندهم إلا حسناً . وقد قالوا : إن الكلام إذا خرج من اللسان لم يجاوز الآذان ، وإذا خرج من القلب دخل في القلب . وقد مر سيدنا الحسن برجل يعظ فلم يتأثر به ، فقال : يا هذا إن بقلبك لشراً أو بقلبي . وسأل عمر بن ذر أباه فقال يا أبت ما بالك إذا تكلمت أبكيت الناس ، فإذا تكلم فترك لم يبكهم ؟ قال : يا بني ليست النائحة الشكلى كالنائحة المستأجرة .

هذه صورة للواعظ الذي يمكن أن يفيد به الاسلام أنصاراً ، ولكن الاسلام بل في عصرنا بمن يكون قوله دائماً رداً عليه ، فهو يقول ما لا يفعل ، يزهد الناس في الدنيا ولا يزهد ، ويدعوم الى الحب والمودة وهو أبغض الناس للناس ، وينهاهم عن الاسراف والبذخ وهو منغمس في الترف ، يرفل في مطارف النعيم . وقد دعا قال اسماعيل بن القاسم (أبو المتاهية الشاعر) :

ما أقبح التزهيد من واعظ يزهد الناس ولا يزهد
لو كان في تزييده صادقا أمسى وأضحى بيته المسجد
يخاف أن تنفذ أرزاقه والرزق عند الله لا ينفد
والرزق مقسوم على من ترى يناله الأبيض والأسود

وبعد : فهل نلج في الأفق بشار خير نأمل من ورائها أن يعود للاسلام مجده وعزه على يد هداة مصلحين ، متفانين في خدمة دينهم ، جاهدين في مرضاة ربهم ؟ إني لآلمح هذه البشائر ، فقد أوشك الناس أن يكفروا بالمادة ويرجعوا إلى سماحة الروح يطلبون عندها علاج أدوائهم . ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ؟

على محمد عيسى
المدرس بمعهد القاهرة

مع الشعراء :

زين الشباب أو العبقريّة المأسورة

- ١ -

أبو فراس الحمداني :

شاعر درج في بيت الملك ، ونعماء الأمانة ، وفسحة العيش ، وطرافة الحياة ، وإسماعاد الجدة ؛
ونمت قريحته في منابت الشعر ومدارج العروبة ؛ وتفتحت عينه على ملاحى الشعراء ومعاني
النظامين ومساقات القصيد وهبات تفريرين أيادي الوافدين .

شب وشبت بين برديه الكرامة والمعزة : نفس أبيه ، ووجدان صادق ، وإحساس صاف
خالص من شوائب التبلد ، وهمة فوق السماكين .

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه وإني لها فوق السماكين جاعل
يتمدح بنفسه صادقاً غير مبالغ :

ومسكاري عدد النجوم ومترلي مأوى الكرام ومترل الأضياف

لا يقدمه عن مطلبه بعد المزار ولا مشقة المسلك ولا وعورة الطريق ، ملكت معالي
الأمور عليه أقطاره ، وأخذته من كل جانب ، ووزعت نفسه بين منارحها .

إذا ما العز أصبح في مكان سموت له وإن بعد المزار

مقامي حيث لا أهوى قليل ونومي عند من أهوى غرار

ولم تكن مدالفة طائشة ، ولا أمانيه خائبة ، فعزماته مسددة صائبة ، وأمانيه لاسموعى مثله ،
فقد خلق للعلياء ، ونشأته البيئة لساميات الأمور .

إذا ما عن لي أرب بأرض ركب له ضمينات النجاح

يحاول ويحاول ولا يتكل على شرف أرومته ، إنه شاعر فارس ، ومكافح منافع مؤمل ،
عاش طيلة حياته لا يابه بمجد موروث ، له رأى في الغنى يصارح به ويهتف في غير التواء :

إن الغنى هو الغنى بنفسه ولو أنه عارى المتناكب حافي

ليس في مقياسه الثراء ولا في حسابه بريق الذهب ، الغنى معزة النفس واعتمادها على قوتها

وفيض روحانيتها وسموها وإن تعرت منا كب صاحبها وأعوزه بريق الغنى وكساء الرياء الذي يفرح به الضعيف ويقدره واهى العقيدة ناقص الرجولة .

وهو غيور على أمانيه وآماله يتحرق شوقا الى المجد ولا يبيت على هجمة ، يرى مكانه فوق النجوم ومنزلته في خباء السماء ومناط الثريا ، ويشق على نفسه أن يتخلى عن الصدارة وينزل عن منزلته التي لا يسدها رجال غيره .

إني أغار على مكاني أن أرى فيه رجالا لا تسبد مكاني

وهو لا يقنع بالتمنى ولا يعيش على الرجاء فحسب ، إنه مقدم ومغامر يلقي بنفسه في المعامع ويرد المهالك وينزل الى ميادين الخفاف ، يهزه الأرب فيركب في طريقه مسارب الغاية غير ضعيف الرأي ولا متقاعد الحيلة ولا نازل الهمة .

وهو ريق الشيم ، طبع الأخلاق ، كريم النفس ، سهل القياد على الأخدان ، متسامح مع الخللان ، يقابل جنابة الصديق بالعفو ، وتنكر الزميل بالرضا ، يرى مقابلة السيئة بالحسنة ، ويحلو له طعم العفو عن إساءة الصديق ، يتمتع شمعه في هذا ويصدقك ، ويهزك إذا نشدت معه رأيه في معاشرة الاخوان والتجاوز عن هوانهم : (لا شيء أحسن من حان على جاني) .

واليك أبياته الحانية الصافية .

ما كنت مذ كنت إلا طوع خيالي لست مؤاخذاً الاخوان من شأني
يجني الخليل فأستحلي جنائيه حتى أدل على عفوى وإحساني
إذا خيل لي لم تنكر إساءته فأين موقع إحساني وغفراني !
يجني على وأحسر صاحبا أبدا لا شيء أحسن من حان على جاني

هذا لون من صفاء الانسانية وطيب القرائح وجمال النفوس ، لا يمر به قارئ إلا لفت نظره واستراح إليه وخف طربا به وهدأت أنفاسه عنده من لهات الصداقات الضائعة والمؤاخذات المتردفة والقطيعات التي منيت بها الصلات ... من لك بالصديق الذي يستحلي جنائيك ، ومن لك بالآخ الذي يحنو صاحبا أبدا ، ومن ذا الذي يستدل على عفوه بالمرور كريمة على الإساءات ما كانت عن إخوة وصداقة ؟ تلك أبيات تمخضت عنها قريحة تجود بأيات النبوغ وتنضج عن قلب خفاق بالأمل والحب ، تتناثر من فيوضه أفانين الشجر وبدائع السحر وأنشيد الهوى وأغاريد الغرام .

لم يكن جامع الصبابة ولا فاجر النظرة ولا منهتك الخلوة يهزه الجمال ويطرب به وله ، ويهتف من أصماقه بطفراته العفة ولياليه الطاهرة ونجواته الخالية من رقصات الشيطان ونزوات الآبالسة ... نعم كان كريم النجوات ، عفيف الخلوات ، طاهر الأردان ، تلحقه الظنون ولكنها لا تأخذ بتلابيبه .

فلما اجتمعنا يعلم الله بيننا لقد كرمت نحوى وغفت ضمائر
وبت يظن الناس في ظنونهم ونوبى مما يرمي الناس طاهر
وهو يحدثننا ، ولا بأس من تصديقه فانه صاحب نفس عالية :

فبت أعل خمر من رضاء لها سكر وليس لها خمار
الى أن رق ثوب الليل عنا ونادت قم فقد برد السوار

تلك جلسات الجمال وسهرات القرائح التي تنفرو الى المقان وتحتفى بسهراتها وليلاتها ،
والنفوس العظيمة والقلوب الكبيرة تهزها هذا عنيفا آلام كما تنيرها الآمال ، ويمز على النفس
الآبية تنكر الناس وتبدل الخلال وتقاعد الهمم في مسارب العرف ومنافذ الآباء ، ونفس أبى
فراس نفس سرية ، وهمة همة ملوك ، ووظوه لا يعرف التراجع ، وإن وقف يزدرد المرارة ويشكو
غير ضعيف ولا واه من ميل الأصدقاء وقلة إنصافهم وهتافهم مع الغدر وإجابتهم لداعى
الجمود . . . إنه يقلب طرفه فى الحن ، ويستقرى الأصدقاء خليلا خليلا .

أقلب طرفى لا أرى غير صاحب يميل مع النماء حيث تميل
أكل خليل هكذا غير منصف وكل زمان بالكرام بخيل
نعم دعت الدنيا الى الغدر دعوة أجاب إليها عالم وجهول

لقد كان يداخله الشك فى حكمه على الناس بالغدر القاطع ، وكان يعضى على إيمانه بالوفاء حتى
عضه الدهر بنابه وفرد خطواته وقيدته فى أسر الروم ، وهناك فى بعد عن الوجوه المسترة
وراء يربق الرياء عرف الحقيقة المرة ولمس البلاء الشائن ، فحق هتافه الصارخ من أحماقه ، وتأبى
الأيام إلا أن تداعب القرائح الشاعرة لتضحك من دموع العباقة ، وتشقى غليل الأحداث من
بخور احتراق الأنفس النابغة ، وتأبى هم أبى فراس إلا أن تقدم فى معركة بين العرب والروم
يؤمر فيها ويصاب بنصل فى فخذ ثم ينقل الى القسطنطينية ، ويشقى الأمر وتطول مدته ويتقاعد
سيف الدولة عن ابن عمه والذى وفى له ، وهناك يشتد به الحنين ويشوقه أهله ويحن جنون
هواه ، ولأمر ما يتناقل عنه سيف الدولة . ولأمر ما تطول لياليه ببلدة (خرسنه) فيضيق
ويتألم ويطلب الصبر والتأسى ، ولكننه الأسر . . . ولكنها القرينة والشاعرية التي تربت على
الحرية والطلاقة ، ومع هذا يشوب الشاعر الأسير الى مجادته ويهيب بجلده وينشد متمزيا مؤملا
طارفا قدر مواهبه ومواقفه :

من كان منلى لم بيت الا أميرا أو أسيرا

ويشق عليه الضيق وتسرف الساعات فى الطول وتقرى الحوادث جلادته ، ولكننه يرتد
الى التصنع والى التصبر :

نضوت على الأيام ثوب جلادتي ولكنني لم أنض ثوب التجلد
ثم يقول :

بمن يشق الانسان فيما ينوبه ومن أين للحر الكريم صحاب
وقد صار هذا الناس إلا أقلهم ذئابا على أجسادهن ثياب
تغابيت عن قوم فظنوا غباوة بفرق أغبانا حصي وتراب
ولو عرفوني بعض معرفتي بهم اذن علموا أني شهدت وظابوا

ولا يفوته إيمانه بالله ، ولا تنزع خطوب تقنلع النقة من جلادة الصخر . إنه يزفر زفرة
مقروحة مكروبة لكنها في معارجها الى السماء وطريقها الى الله :

ومن لم يوق الله فهو ممزق ومن لم يعز الله فهو ذليل
وينسى مع قسوة الأيام قيوده ويتلقف أخبار أحبائه وغلمانه وصور منزله فتأخذه
العبرات ويستولى عليه الاشتياق لمصيره ومهبط من وراءه من أم ومن أبناء ، وهو يعرف أنه
أحق بالبكاء وأولى بالرحمة ... غير أن عاطفته الحانية تخترق حجب الغربة وتبكي على
غلامين له :

بت أبكيكما وإن عجيبا أن يبیت الأسير يبكي الطليقا
ويجزع لبكاء أمه ولا يفوته أن يصبرها ويطلب اليها أن تلوذ بالامل في الله فهو باب
النجع .

وإن وراء الستر أما بكأوها على وإن طال الزمان طويل
فيا أمنا لا تمدى الصبر أنه الى الخير والنجع القريب رسول
وهو ينفت الالم ويصرخ صراخا مرا قاسيا يلهب الحشرات ، ومع ذلك تحس فيه رفعة
النفس وعلو النظرة وبعد الثقة في الله وحسن الظن بالسما التي لن تقلع عن إغائته مهما طالت
شقة البعد :

مصابي جليل والعزاء جميل وظنى بأن الله سوف يذيل
جراح تحامها الاساء مخافة وسقمان باد منها ودخيل
وأمر أقاسيه وليل نجومه أرى كل شيء غيرهن يزول
تطول بي الساعات وهي قصيرة وفي كل شيء لا يسرك طول

تلك لحات عبقرية عاشت أسيرة المحمد وقضت حياتها في قيد الاماني العرية ، وجرها
الاقدام الى مسارح الاسر والعيش في ظلال الغربة حينما تفضت بدائع حزينه متلفه على
الخلاص ، الى أن أطلق سراحها وفك عقابها ، وكان تغريدها سلوة بريئة من الوهن المبيت

أو العويل البنائس، إنما كان نهوياً فيه إشجاء وفيه تطريب سايم إلا من اللهفة والأسف على
حبيل الوفاء المنيت ومتاع الأهل الممنوع تثيره سجعات الحائم وتوقظه خطرات النسيم ونجرح
أحاسيسه لمساة الهواجس إن مرت بخاطره الشارد... تطرب الحمامة على فرع غصنها فتنتال
دموعه ويهيج لتلك الطليقة التي تبكي ولا تجسر في ساقها قيوداً، ويساجلها ويؤنبها
لبسكاً المر الذي كان جذيراً به :

أقول وقد ناحت بقربي حمامة	أيا جارئي هل تشمرين بحالي
معاذ الهوى ما ذقت طارقة النوى	ولا خطرت منك الهموم بيالي
أحمل محزون الفؤاد قوادم	على غصن ثائي المسافة عالي
أيا جارتي ما أنصف الدهر بيننا	تمالي أقاسمك الهموم تمالي
تمالي ترى روحاً لدى ضعيفة	تردد في جعم يعذب بالي
أضحك مأسور وتبكي طليقة	ويسكت محزون أو يندب سالي
لقد كنت أولى منك بالدمع مقلة	ولكن دمعى في الحوادث غالي

تلك ظلال أمن فريحة أبي فراس، وإليك ما قاله صاحب البيتمة عن ذلك الماسجد المأسور:
« أبو فراس الحارث بن سعيد بن حمدان كان فرد دهره وشمس عصره أدبا وفضلا وكرما
ونبلا ومجدا وبلاغة وبراعة وفروسية وشجاعة، وشعره مشهور سائر بين الحسن والجودة
والسهولة والجزالة والمذوبة والفخامة والجلالة والمثانة، ومعه رواء الطبع وسمعة الظرف
وعزة الملك، ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبد الله بن المعتز. وأبو فراس يعد أشعر
منه عند أهل الصنعة وتقدة الكلام، وكان صاحب يقول « بدى الشعر بملك واختتم بملك »
يعنى امرأ القيس وأبا فراس، وكان المتنبي يشهد له بالنقدم والتبريز ويتحامي جانبه فلا ينهري
لمباراته ولا يجترئ على مجاراته، وإنما لم يمدحه ومدح من دونه من آل حمدان تهيباً له وإجلالا،
لا إغفالا وإخلالا، وكان سيف الدولة يعجب جدا بمحاسن أبي فراس ويميزه بالاكرام عن
سائر قومه ويصطفيه لنفسه ويصطحبه في غزواته ويستخلفه على أعماله » .

ذلك هو أبو فراس المتوفى سنة ٣٥٧ هـ بعد أن شهد الممارك وأسر، ولبت في السجن
أربع سنين، ونظم قصائد فيها الرقة والحنين إلى الوطن عرفت في الشعر العربي بالروميات .
وقد اختير في سن السابعة والثلاثين إذ جرت بينه وبين أبي المعالي بن سيف الدولة
حرب انتهت بقتل أبي فراس، وحق فيه ما قاله عن نفسه :

زين الشباب أبو فراس لم يمتع بالشباب

كامل محمد محمود

مدرس بمعهد القاهرة

لغويات

٤٦ - تضخم النقد

تستعمل كلمة التضخم في كتابة أهل العصر . والوارد في اللغة الضيخ والضيخامة ، وفعلهما الثلاثي : ضَخِمَ . فالوجه أن يقال : ضَخِمَ النقد أو ضَخِمَتِه . ومما يجري فيه هذا الاستعمال أن الأطباء يقولون : تضخم الطحال ؛ وقد رأيت الجاحظ في رسالة «الشارب والمشروب» (١) « يقول : « ويمنع الطحال من الميظم » ؛ ومما يتصل بهذا أن المماجم اللغوية فيها : طَحِيل الرجل — من باب تعب — : عظم طحاله . فيحسن في داء الطحال أن يقال : عظم الطحال أو الطحاحل ؛ إيثارا للاتباع واتساعا بسلفنا الرشيد .

على أني مع هذا أجزئ التضخم على أنه لم يرد فيما نعلم . وذلك أن التضخم يصلح لأن يكون مطاوعا للتضخيم ، فيقال : ضَخِمَتِه فتضخم كما يقال : علمته فتعلم ، وقطعته فتقطع . ولست أزعج أن في اللغة ضخمتة ، فلم أعثر على هذه الصيغة ، ولكني أثبتتها بطريق القياس ، وأقول مع كثير من النحاة باطراد التمدية بالتضخيم . وإذا اطراد التضخيم اطراد مطاوعه وهو التضخم ، وهذا مع أن الخير في ترك هذه الصيغة المستحدثة ، والوقوف عند ما ورد عن العرب .

٤٧ - الكبرياء الممقوت

يظن بعض الكتاب أن الكبرياء مذكر كالكبر ، فيصفه وصف المذكر . وفي أهرام يوم ٩ / ١٢ / ١٩٤٥ : « إرضاء لكبرياء مصر الوطني » . والكبرياء من الالفاظ المؤنثة ؛ إذ هو مختوم بألف التانيث الممدودة ، وهي تفعل ما تفعل تاء التانيث . وفي التنزيل : « قالوا أجبنا لثقتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض » ، فتراه أنث تكون لمكان الكبرياء .

ونجد يقول قائل : إنا نرى المذكر في العربية قد يذهب به مذهب المؤنث ، والمؤنث قد يقصد به قصد المذكر ، اعتمادا على تأويل أحدها بالآخر ؛ ألا ترى إلى ما حكاه (٢) الأصمعي عن أبي عمرو بن العلاء أنه سمع أعرابيا يقول - وذكر إنسانا - : فلان لغوب ؛ جاءته كتابي فاحتقرها ؛ قال أبو عمرو : فقلت له : أتقول : جاءته كتابي ؟ فقال : نعم ، أليس بصحيفة ؟ . وقال الشاعر :

يا أيها الراكب المزجي مطيته سائل بني أسد : ما هذه الصوت ؟

فقال : هذه للصوت لأن الصوت في معنى الصيحة . وقال آخر :

أرى رجلا منهم أسيفا كأنما يضم إلى كشحيه كفا مخضبا

(١) ص ٢٧٧ من طبعة السندوبي . (٢) انظر في هذه الحكاية اللسان في كتب .

فقال مخضبا لأن الكف في المعنى عضو . وقال الآخر :

إن السماحة والمروءة ضمنا قبرا بمرؤ ، على الطريق الواضح

فقال : ضمنا ، ولم يقل ضمنا ؛ لأنه ذهب بالسماحة الى السخاء ، وبالمروءة الى الكرم (١).

وأقول : إن ما أورد في هذا المضمار لا يمدى به مورد السماع ، وهو من الشاذ الذي لا يقبل إلا من العرب . فأما القياس والجادة فهو أن يلزم كل نوع عمود أمره وأصل حكمه ؛ حتى لا يختلط الأمر ، ولا يشكل السياق .

٤٨ — منذ سافر صديقي ، وأنا لا يهنا لي عيش . كل عام وأنتم بخير .

١ — بجرى الأسلوب الأول كثيرا على ألسنة الكتاب ، وفي أهرام يوم ٣/١٠/١٩٤٥ : « منذ هذا الحين ، وحزب الأحرار الدستوريين بوجه غاية همه إلى جمع كلمة الأمة حول هذه المبادئ » . والذي يضيق به النحوى في هذا الأسلوب هذه الواو التي لا مكان لها في الكلام ؛ فهي مقحمة في غير مقحم ، مسلوكة في غير لئمة (٢) .

ولا نكران أن الواو تزداد في الكلام إذا كان لزيادتها غرض يدعو إليها ؛ ألا ترى حسنها في قولهم : لا ، وأيدك الله ! إذ يراد رد شيء والدعاء للمخاطب بالتأييد ، ولولا مكان هذه الواو لأوم الكلام الدعاء على المخاطب بعدم التأييد . وقد روى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه مر برجل في يده ثوب ، فقال له الصديق : أتبيع هذا ؟ فقال : لا ، برحك الله . فقال له الصديق : لا تقل هكذا ، قل : لا ويرحك الله . ويحكى عن الصاحب بن عباد أنه قال في هذه الواو : هي أحسن من واوات الأصداغ ، ويراد بواو الصداغ العذار ينبت من الشعر على وجوه الشبان ، وهذا على التشبيه بحرف الهجاء .

فأما زيادة الواو لغير غرض ذى بال فيحظرها البصريون ، ويحيزها الكوفيون . ومن شواهد قول الشاعر :

حتى إذا قلت بطونكم ورأيتم أبناءكم شُبوا

وقلبتم ظهر المجن لنا إن اللئيم العاجز الخب

فالواو في قوله : وقلبتهم زائدة ، وهو جواب إذا . وقوله : قلت بطونكم أى صحتهم بعد هزال . وفسر أبو العالية قل البطون في الشعر بكثرة النسل والعدد ، يقال : قل القوم إذا كثروا .

ومما استشهدوا به أيضا قول الشاعر :

فما بال من أسمى لأجير عظمه حفاظا ، وينوى من سفاهته كسرى

(١) يرجع في هذه الشواهد وأمثالها إلى الانصاف طبع أودية ص ٢٤ ، ٢٢٣ .

(٢) القم : المنهج ،

وقد تأول البصريون ما ذكر على حذف الجواب في الأول ، أى بان غدركم ولؤمكم . وفي الثاني يراد ما بال من يفعل هذا وما خطبه ا فالواو في الموضعين للعطف . وخلاصة البحث أن الواو في الأسلوب لذي نتحدث عنه بحسن اجتنابها ، وأنه لا بأس بها على ضعفها عند الكوفيين .

ومن فروع هذا البحث أنك إذا قلت : منذ زمان ما بهنألى عيش ، فإن هذا لا يجيزه بصرى ؛ إذ إن ما النافية لها الصدر عندهم ، وهو جائز عند الكوفي الذى لا يرى هذا .

ب — وجرى الناس في عصرنا أن يقولوا في التهنية بالعيد : كل عام وأتم بخير ، وقد يجرى في كتابة الأدباء والخاصة . وعمدى أن هذا التركيب يحتمل ثلاثة أوجه :

١ — أن يكون كل ظرفاً لإضافته إلى الظرف ، فيقرأ بالنصب ، وطامله الظرف «بخير» والواو على هذا زائدة على المذهب الكوفي .

٢ — وأن يكون كل مبتدأ محذوف الخبر ، والتقدير : كل عام يأتى وأتم بخير . فالواو للحال . والخبر في هذا محمول محمل الدعاء .

٣ — وأن يكون كل عام مفعولاً به لفعل محذوف نحو تقضى مثلاً . ويكون هذا مما حذف لكثرة الاستعمال فالتحقق بالأمثال ، نحو السكاب على البقر . وقد يصرح بهذا العامل في عبارات بعض الكتاب .

٤٩ — (وإني كنت أربأ بـمـثـلكم أن تـخط يده خيالات وأوهام)

وقمت هذه الجملة المزبورة في كتابة بعض فضلاء العصر . ويبدو أنها أثارت حولها عاصفة من النقد والتخطئة من قبل رسم «أوهام» فإن مقتضى النحو أن تكتب أوهاما لعطفها على خيالات المنصوبة .

ويبدو أن كاتبها عنى بالدفاع عنها وأهمه تصويبها ودفع سوء عنها . وقد نحنا في هذا السبيل نحواً لم يرقنى ؛ فهو يقبس هذا التأليف على قوله تعالى : « وأذان من الله ورسوله الى الناس يوم الحج الأكبر أن الله بريء من المشركين ورسوله » ، قرئ رسول بالرفع وهو في المعنى معطوف على اسم أن . وقد خص جمهور النحاة هذا الحكم بالمعطوف على اسم إن وأن ولكن ، ويلحق بها القراء بقية أخوات إن ، ولهذا شروط مذكورة في كتب النحو ، على خلاف طويل الذيل في هذا . وأورد الكتاب أيضاً في تصويب هذه الجملة قوله تعالى : « إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئون والنصارى » الآية . وهذه الآية أيضاً لا يدخل فيها ما نتحدث عنه ؛ إذ أن المنصوب فيها كان مبتدأ قبل دخول الأداة الناسخة ، فله حظ من الرفع في سابق عهده ، فن ثم أجاز بعض النحاة أن يكون الصابئون عطفاً على اسم إن بالاعتبار السابق . وجمهور النحاة

على أنه مبتدأ محذوف الخبر ، والجملة اعتراضية . والاعتراض يراد منه أن هؤلاء أهل أن يكون لهم استقلال في الحكم . فأما في الجملة التي هي موضوع الحديث فلا معنى لذلك . وأحب إلى إذا تملكك شهوة النصيب أن يسلك أحد منهجين :

١ — فلمن شاء أن يزعم أن الرسم روعي به أن الكتاب اعتمد في لفظه لغة ربيعة في الوقف على المنصوب المنون بالسكون ، كما قال الشاعر :

ألا حبذا غنم وحسن حديثها لقد تركت قلبي بها هائما درف

وفي ظني أني رأيت ابن مالك خرج على هذه اللغة بعض ما ورد في الحديث منصوبا منونا بدون ألف . وذلك في كتابه : شواهد التوضيح والتصحيح لمشكلات الجامع الصحيح . ولم يتيسر لي مراجعته حين كتابة هذا المقال .

٢ — ولمن شاء أن يعتمد ما ذكره الرضي في شرح كافية ابن الحاجب : أنه يجوز مخالفة الأعراب في العطف إذا ظهر المعنى . وقد احتج لذلك بقول الفرزدق :

اليك أمير المؤمنين رمت بنا همومُ المنى ، والموجل المنصف
وعضُ زمان يابن مروان لم يدع من الناس إلا مُستَحْتًا أو مجلّف

فتراه رفع مجلف ، وهو معطوف على مسحنا بالنصب . وذلك مراعاة للمعنى ، إذ المعنى : لم يبق إلا مسحت أو مجلف — والموجل : الفلاة لا أعلام فيها يهتدى بها ، والمنصف : الذي يسار فيه بلا روية ولا دليل ، وعض الزمان شدته ، والمجلف الذي ذهب معظمه وبقى منه شيء قليل ، والمسحت : المستأصل الذي لم يبق منه بقية — وإذا خذونا بجملتنا حذو بيت الفرزدق وجعلنا العطف على المعنى جعل التقدير كأنه قيل : وإني أربأ بملككم أن يكون من يدكم خيالات ، وأوهام . وهذا التخرج لبيت الفرزدق وتنحيته عن الخطأ لم يعجب نجويا معاصرا له هو عبد الله بن أبي إسحق الحضرمي ، فقد رمى الفرزدق بالاعتن وهتجنه ، فكان من أثر ذلك أن ثلثه الفرزدق فقال :

فلو كان عبد الله مولى هجونه ولو كان عبد الله مولى مواليا

ولما بلغ ذلك ابن أبي إسحق قال : وقد لحنت أيضا ، فقد كان ينبغي أن تقول : مولى موال . وكانت وفاة الفرزدق سنة ١١٠ ، ووفاة ابن أبي إسحق سنة ١٢٧ . ومما جاء فيه اختلاف الأعراب في العطف قوله تعالى : «واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام» ، فقد قرئ برفع الأرحام وهي معطوفة على لفظ الجلالة المنصوب . قالوا : والتقدير : والأرحام مما يجب أن تتقوه وتحفظوا لأنفسكم فيه . وعلى الله قصد السبيل .

محمد علي النجار

المدرس بكلية اللغة العربية

حياة خالد بن الوليد

خالد بن الوليد

- ٣١ -

بين عمر بن الخطاب وخالد بن الوليد :

عزل عمر خالدًا مرتين : مرة عن القيادة العامة وولى مكانه أبا عبيدة بن الجراح ، وكان جيبيا الى عمر قريبا الى بعض طباعه وخلقه ، وفي هذه المرة كتب عمر الى أبي عبيدة كئيبا يقول له فيه : وقد استعملتك على جند خالد بن الوليد فقم بأمرهم الذي يحق عليك ، وفي رواية أنه قال له : ومن احتجت إليه (من الجند) في حصارك فاحتبس ، وليكن فيمن يحتبس خالد بن الوليد فإنه لا غنى بك عنه . وهذه شهادة من عمر لخالد حسبك بها ، وقد صدقت فراسته ، فلقد كان خالد هو القائد . ولكن الذي يسير بمشورة قائده أبي عبيدة ، ولم يعرف أن أبا عبيدة خالف خالدًا في رأى ارتآه ، وتم النصر على يدى خالد فيما فتع من الشام بقيادة أبي عبيدة .

والمرة الثانية عزل عمر خالدًا من الجندية بقة ، فأبعده عن جيوش المسلمين ، وذلك أنه بلغه أن خالدًا وعياض بن غنم أو غلا في أرض العدو فأصابا أموالا كثيرة ، فبلغ الناس ما أصابا فانتجموها طلبا لرفدهما ، وكان فيمن انتجع خالدًا الأشعث بن قيس فأجازه خالد بعشرة آلاف ، فمرفها عمر ، وكان لا يخفى عليه من أمر رعيته شيء ، فكتب إلى أبي عبيدة أن يسأل خالدًا من أين أجار الأشعث ؟ وأن يقاسمه ماله نصفين ، ثم ودع خالد جفده وخرج نحو المدينة فلما قدم على عمر شكاه الى المسلمين وقال له : وبالله إنك في أمرى غير مجمل يا عمر ، فقال عمر : من أين هذا الثراء ؟ فقال خالد : من الأنفال والمهملان ، ما زاد على الستين ألفا فلك ، فقوم عروضه ، فخرجت الى عمر عشرون ألفا ، فأدخلها بيت المال ، فقيل له يا أمير المؤمنين لو رددت على خالد ماله ؟ فقال : أما تاجر المسلمين ، والله لا أردده عليه أبدا ، ثم قال له : يا خالد والله إنك على لكريم ، وإنك إلى الحبيب ، ولن تعاقبنى بعد اليوم على شيء !

ونحن إذا أردنا أن نستخلص من سيرة الفاروق وخالد الأسباب المعقولة لهذا الذى كان قائما واجدوه في طبيعتيهما المختلفتين وفي عملهما الذى قاما به في دولة الاسلام ، فبالد رفع رأسه في الاسلام قائما حرييا ، له أنة الخيل في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وله قيادة الجيوش في حروب الردة وفتح الشام مدة خلافة أبي بكر ، ولم تنكس له راية ولم يهزم له جيش ، وقد أخطأ على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فتبرا من عمله ولكن عذره ولم يعزله ، وكذلك أبو بكر عذره ولم يعزله ، بل إن أبا بكر كان لا يسأله عن شيء من تصرفه في الغنائم ، وكانت هذه الطبيعة العسكرية في خالد والعمل الذى تولاه مؤثرين فيه أعظم التأثير ، فكان يندفع بحيوشه في مضائق لا يقوم لها إلا أفذاذ الرجال ، وكان إذا رأى رأيا أنفذه ولم يرجع الى رأى

الخليفة خيفة قوات الفرصة ، فهو رجل يقدس الحرية الشخصية والاستقلال العسكري الى أبعد حد في دائرته المختصة به ، وكان الصديق قد رضى منه ذلك ليشجعه ولا يكسر شوكرته ، وقد رأى النبي صلى الله عليه وسلم صنع به مثل هذا .

أما عمر بن الخطاب رضى الله عنه فهو الرجل الذي لا تستقر نفسه إلا إذا اقتنع تفصيلا ، ولا يكفيه أن يكون صاحب العمل حسن النية مدركا لمواقب أعماله ، وفي مواقفه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية وأمرى بدر والصلاة على عبد الله بن أبي بن سلول وغيرها ما يبين طبيعة عمر القوية المتفوزة ، فهو إذ يرى خالدا يخطئ في مالك بن نويرة ، لا يكفيه ما أرى أبا بكر من عذر خالد ، وهو إذ يرى خالدا يركب بالمسلمين المهالك لا يرضيه أن يكفه بالنهي الكلامي ، وهو إذ يرى خالدا يتصرف في غنائم المسلمين دون رجوع الى رأى الخليفة المسؤول الأول عنهم خالد في ماله . وفي الأخير يرى أن خالدا قائد مظفر عقد النصر بلوائه فلم ينهزم قط ، والمسلمون منهم حذناء العهد بالاسلام ، فما يؤمنه أن تدخل في أنفسهم داخله شرك خفية فيرون أن هذا النصر مرتبط بخالد وشخصه ؟

لهذا وذاك وجب في رأى عمر أن يأخذ الأمر بالحزم الذي عرفه الناس عنه حتى يصدق الله ويرضى دينه ويحفظ على المسلمين سلامة عقيدتهم وأن الله تعالى هو الذي ينصر دينه ؛ روى ابن حجر في الإصابة عن أنس بن مالك أن عمر قال لأبي بكر رضى الله عنهما : اكتب الى خالد لا يعطى شيئا إلا بأمرى ، فكتب إليه بذلك ، فأجابه خالد : إما أن تدعنى وعملى ، وإلا فشأنك بعملك ، فأشار عليه عمر بمزله ، فقال أبو بكر : فن يجزى عنى جزاء خالد ؟ قال عمر : أنا ، قال : فانت ، فتجهز عمر حتى أتبع الظهر في الدار ، فشئ أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم الى أبي بكر رضى الله عنه ، فقالوا : ما شأن عمر يخرج وأنت محتاج إليه ؟ وما لك عزلت خالدا وقد كفاك ؟ قال : فما أصنع ؟ قالوا : أعزم على عمر فيقيم ، وتكتب الى خالد فيقيم على عمله ، ففعل ، فلما ولي عمر كتب الى خالد : أن لا تعطى شاة ولا بعيرا إلا بأمرى فكتب إليه خالد بمثل ما كتب الى أبي بكر ، فقال عمر : ما صدفت الله إن كنت أشرت على أبي بكر بأمر فلم أنقذه ، ثم كان يدعو الى أن يعمل فيأبى إلا أن يخليه يفعل ما يشاء ، فيأبى عمر . وهذه الرواية أوثق ما في هذا الموضع وأحراه بالقبول ، وهى أظهر في بيان السبب الحقيقى من أية رواية أخرى ، وإذا أضفنا إليها ما جاء في تهذيب ابن عساكر من أن عمر رضى الله عنه كان يقول قبل خلافته : أما والله لئن صير الله هذا الأمر الى لأعزلن المثني بن حارثة عن العراق وخالد بن الوليد عن الشام ، حتى يعلم أن الله هو الذى نصر ليسا هما ، إذا أضفنا هذا الى ذلك أحطنا بخلاصة الأسباب الحقيقية في هذه الأحداث التى كانت أعظم برهان على تربية الاسلام لرجالاته تربية تعلو فوق الصلات الشخصية والقرابات النسبية ، ولا ترى إلا مصلحة الأمة في حدود الشريعة المطهرة مهما كان مقام الأشخاص .

والبرهان الأكبر على هذه التربية الفاضلة ما ثبت أن هذه الأحداث لم تغير من نفس الامامين العظميين ، بل رأى فيها كل واحد منهما وجها من الحق أقام عليه ، ورأى غيره فرجع عنه وانطوى قلبه على أعظم الحب والتقدير لصاحبه ، فقد روى أن عمر رضى الله عنه كتب الى الامصار « إني لم أعزل خالدا عن سخط ولا عن خيانة ، ولكن الناس فتنوا به فخفت أن يوكلوا ويبتلوا به ، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع ، وألا يكونوا بعرض فتنة » وهذه السياسة كانت سياسة عمر العامة لم تخصص خالدا ، فقد صنع هذا مع زياد بن أبيه كما جاء في كتاب أسد الغابة ، فان زيادا قال له : يا أمير المؤمنين ، أخبر الناس أنك لم تعزاني لخزاية ، فقال عمر : ما عوليتك لخزاية ولكن كرهت أن أحمل الناس على فضل عقلك . وكتب عمر الى ولاته يحذروهم أن يسندوا رئاسة العسكر الى البراء بن مالك خشية أن يحملهم على ما تدعوه اليه شجاعته فبهلكم ، وهذان المعنيان في زياد والبراء كما بأكملهما في خالد بن الوليد .

وروى الطبري أن خالدا لما قدم على عمر المدينة بعد عزله قال عمر متمثلا :

صنعت فلم يصنع كصنعك صانع وما يصنع الاقوام فآله يصنع

وهذا المذهب في تربية الأمم من أحكم المذاهب وأفضلها ، فإن الأمة إذا وكلت لعبقرية فرد وحملها الراعى على فضل عقل بعض أبنائها ماتت فيها جذوة التنافس وارتاحت إلى الكسل والتواكل وضعفت عن سلسلة العبقرية وفضل العقل ، وهذا في الواقع مشهود محسوس ، وكان من أكبر ما يعاب به زعماء الشرق أنهم لم يعموا العناية السكافية بتدريب من يخلفهم في مراكزهم ويركزوا جهودهم حول أشخاصهم ، فإذا فقدتهم الأمة ولى أمرها من ليس هناك . وحسبنا في إخلاص عمر ومحبته خالدا وتقديره له ما ورد في أحاديث الشورى ، وقد قيل لعمر استخلف على الناس ، فكان مما قال « ولو أدركت خالد بن الوليد ثم وليته ، ثم قدمت على ربي ، فقال لي : من استخلفت على أمة محمد ؟ لقلت سمعت عبدك وخليفك يقول : لخالد سيف من سيوف الله صله الله على المشركين » . ولما بلغه موت خالد ، قال « قد ثلم في الاسلام ثلعة لا ترق ، وليته بقى ما بقى فى الحى حجر ، كان والله سداداً لنحور العدو ميمون النقيبة » .

ولما مات خالد ولم يوجد له إلا فرسه وسلاحه وغلامه وقد حبسهم فى سبيل الله قال عمر : « رحم الله أبا سليمان ! إن كنا لنظنه على غير هذا » . وروى ابن عساكر أن هشام بن البختري دخل على عمر فى ناس من بنى مخزوم رهط خالد ، وكان هشام شاعر ، فقال له عمر : أنشدنى ما قلت فى خالد ، فلما أنشده قال له : قصرت فى الثناء على أبى سليمان رحمه الله ، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله ، وإن كان الشامت به لمتعرضا لمقت الله . ثم تمثل بقول بعض الشعراء :

فقل للذى يبنى خلاف الذى مضى نهياً لاخرى مثلها فكأن قد

فما عيش من قد عاش بعدى بناقى ولا موت من قد مات يوما بمخلد

« رحم الله أبا سليمان ، ما عند الله خير له مما كان فيه ، ولقد مات فقيراً ، وعاش حبيداً ولكن رأيت الدهر ليس بقائل » ولما جاءه فتح قنسر بن علي يد خالد بعد - زله قال : أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر هو كان أعلم مني بالرجال .

أما موقف خالد رضى الله عنه من واليه أمير المؤمنين ، فهو موقف الشرف والبطولة والاخلاص ، فقد روى أنه لما أتاه الكتاب بموت أبي بكر وولاية عمر وعزله قال « الحمد لله الذي قضى على أبي بكر بالموت وكان أحب إلي من عمر ، والحمد لله الذي ولي عمر وكان أبغض إلي من أبي بكر ثم ألزمني حبه » .

وروى ابن عساكر أن أبا الدرداء دخل على خالد في مرضه الذي مات منه ، فقال له خالد : والله يا أبا الدرداء لئن مات عمر لترين أموراً تنكرها ، فقال أبو الدرداء : وأنا والله أرى ذلك ، فقال خالد : « قد وجدت عليه في نفسي في أمور لما تديرتها في مرضي هذا وحضرتني من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل ، كنت وجدت عليه في نفسي حين بعث إلى من يقاسمني مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل ، فرأيت أنه فعل ذلك بغيري من أهمل السابغة ومن شهد بدرا ، وكان يغلظ على وكانت غلظته على غيري نحواً من غلظته على ، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيت أنه لا يبالي قريباً ولا لوم لائم في غير الله ، فذلك الذي أذهب ما كنت أجد عليه ، وكان يكثر على عنده ، وما كان ذلك إلا على النظر ، كنت في حرب ومكيدة ، وكنت شاهداً وكان غائباً ، فكنت أعطى على ذلك نخالقه ذلك من أمري » . فهل رأى الناس احتجاجاً أفضل من هذا ؟ وقد آمن خالد في مظهر إخلاصه وحبه لعمر حتى يمحو من النفوس كل أثر لما كان ، نفخ حيانته بالوصية إلى عمر بعد موته فقال : وقد جعلت وصيتي وتركتي وإتقاه عهدي إلى عمر بن الخطاب .

نهاية خالد رضى الله عنه :

أما نهاية خالد فقد كانت أهدأ نهاية وأفضلها ، فيقيد النظم الإقامة بمحرم على أشهر الروايات مرابطاً في سبيل الله تعالى ، ولما خضرته الوفاة بكى وقال « لقد حضرت كذا زحفاً وما في جسدي شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم أو طعنة برمح ، وما أنا ذا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت العير ، فلا نامت أهين الجبناء ولقد طلبت القتل في مظانه فلم يقدر لي إلا أن أموت على فراشي ، وما من عمل أرجى عندي يعدل إلا الله من ليلة شديدة الجليد في سرية من المهاجرين بها وأنا متعرس السماء تنهل على وأنا أنتظر الصبح حتى أغير على السكفار ، فعليكم بالجهاد » .

رحم الله خالداً ورضى عنه ، وجزاه عن الإسلام والمسلمين خير ما يجزى به العاملين

المخلصين م . صديق إبراهيم عربيد

العلامة المراغى شيخ الأزهر

كتب الاستاذ الجليل النابه محمد كرد على بك كلمة قيمة في تاريخ الاستاذ الأكبر السابق الشيخ محمد مصطفى المراغى رحمه الله ، رأيناها جذيرة بأن نخلد بين صفحات مجلة الأزهر لما حوت عن الامام الراحل من تفصيل قل من يعرفه دون خاصته . وهو تفصيل حافل بما يشهد بفضيل الاستاذ في فهم الدين والامام بحاجات المسلمين ، فوجدنا من الواجب نشر ما يهم الناس منها ، فها هي منقولة عن مجلة المجمع العلمى العربى بدمشق « العدد السابع والثامن من المجلد الحادى والعشرين » .

كان العلم في العصور الماضية يصدر عن العواصم الكبرى يُهرع إليها أرباب الكفايات لما يجدونه فيها من استعداد لسماح أقوالهم والانتفاع بمواهبهم . وكانت المدن الذاهية بهذا الفضل بادىء بدء البصرة والكوفة والمدينة ودمشق وبغداد والقسطنطينية وفسطاط والرى وشيراز وأصفهان ونيسابور ثم النجف والموصل وصنعاء وصعدة وقاس والقيروان وتونس (أفريقية) والقاهرة . ولما نحيف الخراب معظم هذه العواصم وانحطت في مدنيتهما بقيت القاهرة وتونس وقاس والنجف تخرج علماء للامة فعُدت لذلك مراكز العلم . وكان الجامع الأزهر أشهرها وأعظمها لتوسط مصر بين مدن الاسلام في إفريقيا وآسيا .

وظل الأزهر يخرج رجال الدين منذ أقام صلاح الدين يوسف بن أيوب دولة للسنة وقضى في مصر على دولة الشيعة الفاطمية . وكان أصحاب الفضل الواسع المنخرجون في تلك الدار أفل من القليل ، والمتوسطون كثرة على ما هم في كل زمان ومكان . والمتوسط في العادة يسمى ، والمبرز هو الذى يفاخر به تاريخ الامة .

ومن نبغ في مصر من المتأخرين شيخ الأزهر العلامة الشيخ محمد مصطفى المراغى . اشتهر لانه تولى أعظم منصب في الاسلام ، فقد يتولى المتوسطون بعلومهم أسمى الرتب وهم لا يعمدون حفظ ما جرت العادة بحفظه ولا تعلموا ما قرأوه . اشتهر لانه كان حرياً بالشهرة ؛ جمع الى الفقه والاصول ما نعوز العالم معرفته من أصناف العلم ، فأتقن علوم الدين وقال : فطنى ، بل تعلقت همته بمطالب أخرى ، فشارك مشاركة لا بأس بها في المعارف التى كان رجال الأزهر ينفرون منها .

ومن أهم ما ساعد المراغى على تفوقه على أقرانه أن امتاز بذاكرة قوية يذكر ما مر به من

خمسین سنة لا یحرم منه معنی ، وقد جمع الی ذکائه القطری استقلال الفكر وخب الاطلاع ، فما سد أذنيه وعینیه عن سماع الجدید والنظر فیه ، وكان علی مثل الیقین أن یجد الاسلام لن یكتب له الظهور إن لم یقرن بالعلم الجدید . استظهر القرآن وتدبره تدبراً قل أن كان فی الفقهاء المتأخرین من داناہ فیه ، وحفظ وهو فی القضاء بضعة دواوین اشعراء معروفین من أهل الجاهلیة والاسلام .

وحظه الحظ فتخلص من القيود التي وضعها أهل كل مذهب وقضوا أن تؤخذ أقوال صاحبه قضايا مقررة يحظر علی العقل أن یجول فیه ، فهو یجتهد استوفی كل شروط الاجتهاد ، ویمتدح بمناز بمشاورة العقل . نعم عزم الشیخ منذ تمت أدوات ثقافته أن یتقی من ینابیع الشریعة الصافیة ولم یفعل ما تعب أهل المذاهب الجماعیة به من الآراء والاحکام ، وما تشدد فیما رخص به الشرع أو أقرته المذاهب الأخری ، ودعا للعمل بجوهر الدین من دون ما تزمت ولا تضییق ، وحرص علی أن یمده مما لا یتفق مع منازع التجدد .

فصدیقنا المراغی خلق عالماً امتاز بمرونته ، وما كان فیه جهود من أخلتهم التقیة وما اتسعت صدورهم إلا لما رووه عن مشایخهم أو وقفوا عند حد ما قرأوه فی السکتب وما عبأوا بسواه . نظر وهو فی سن الطلب فی علوم لم تدخل برناج الأزهر وشعر بفساد طریقة المشایخ فی تدريسهم ، وشارك فی الشکوى من الشروح والحواشی والهوامش ، ولطالما كانت تربك ذهن الطالب وتقصیه عن معرفة اللغة وعن روح الشریعة فیخرج کالبیضاء یحفظ ما یلقنه دون أن یفهم معناه . وكان بقدر ما یعنی بالأخذ عن شیوخه یعتمد علی درسه الخاص ، وبقدر ما كان یدأب علی تحصیل دروس الأزهر یسمو به الشوق الی الاطلاع علی ما فی علوم الغربیین من متاع للروح والعقل ، وقد قیل لی إنه تعلم اللغة الانکلیزیة أيام كان فی السودان قاضياً . نعم لم یقیم الشیخ نفسه باعتبارات الأزهریین کثیراً ، شأن بعض النوائج یشدون أحياناً عن مصطلح قومهم ویكون الخیر فی هذا الشذوذ .

استطال الشیخ أعوام الدراسة علی ما یظهر ، وحمته تحفزہ الی الاسراع بالخروج الی میدان العمل ، فتقدم لامتحان العالمیة وجاز السنتين الأخیرتین فی سنة واحدة كما قال لی عن نفسه . وبهذا أثبت أن الطالب قد یعلم فی بینه أكثر مما یعلم من حضور الدروس فی أوقات مخصوصة علی معلمین بعینهم ، أما هو فقد جمع بین الفضیلتین : ما زهد فی التلقی ولا اقتصر علی . وروی العارفون أنه حضر علی المشایخ قراءة السکتب المطولة المعروفة عند الأزهریین إلا أنه ما أتم قراءة کتاب منها ، ذلك أنه كان یری أن من العبث صرف الوقت فی حل معیبات هذه الاسفار .

دخل الأستاذ في الحياة العملية في سن مبكرة ، فتولى القضاء قبل أن ينتصف العقد الثالث من عمره ، وأبان عن مقدرة على معاناته ، وظهر أنه طارف بسياسة العلم وسياسة الخلق ، فكان والده وهو رجل شرع مثله أورثه خير صفات من يعدلون بين الناس ، وكانت داره في الصعيد الأعلى مفتحة الأبواب لحل مشاكل قومه وفض خصوماتهم . وقد أخذ القاضى الشاب من بيته من الأخلاق عدل ما تعلمه في الأزهر من علم ، فسمد أبوه به وبأخوته وهم بضعة علماء وقضاة على رأسهم ابنه الأكبر شيخ الأزهر الذى تولى هذه الرئاسة العظيمة في حياة أبيه . أما بنوه هو فقد ربوا تربية مدنية ليس فيهم من لاث العمامة على رأسه .

أصبح المراغى شيخاً للأزهر في الثامنة والأربعين من عمره ، ونذر من تولى هذه المشيخة وهو في هذه السن ، فأتى بنشاط الشباب وحنكة الشيوخ ، فاهتم الاهتمام كله لإصلاح الأزهر الذى كان واضح أساس الإصلاح فيه شيخه وشيخنا الأستاذ الامام محمد عبده . ولما شعر بأن لا تحتة في إصلاح الأزهر لن تقبل استقال ولزم بيته محتفظاً باستقلال فكره وعزة نفسه ، وخلفه في الرئاسة الشيخ الطواهرى .

وعاد الشيخ المراغى الى الأزهر ثانية يشمر عن ساعد الجسد في إصلاحه ، وأتم وضع أساس كليات التخصص ، ككلية علوم اللغة العربية ، وكلية أصول الدين ، وكلية العلوم الشرعية . وكان يعتقد أن الأزهر يحتضر منذ طلبت وزارة الأوقاف وهو من مفتشها خطباً منبرية فجاءها خمسمائة خطبة لم تصلح واحدة منها لأن تلقى على المصلين ، يعتقد ذلك وهو يرى أن دار العلوم تنازع الأزهر أفضليته في تعليم العربية ، ومدرسة القضاء الشرعى الملقاة تنازعه بتدريس الشريعة : وبإصلاح المناهج قضى الأزهر الحديث على فوضى التدريس فيه ، وبالرجوع عن البرامج المتبعة صيغ الأزهر بما يلائم الزمن ويقرب الأزهرى من الحياة العملية ، وصارت دروسه القديمة بمثابة دروس ثانوية تهيب الطالب للتخصص ، وهذا بمثابة الدراسات العالية أو التعلم العالى .

تم له كل هذا بعد أن صرح في مذكرته الإصلاحية : وإني أقرر مع الأسف أن كل الجهود التى بذلت لإصلاح المعاهد منذ عشرين سنة لم تعد بفائدة في نهضة التعليم ، وأقرر أن نتائج الأزهر والمعاهد تؤلم كل غيور على أمته وعلى دينه ، وقد صار من المحتم لحماية الدين - لا لحماية الأزهر - أن يغير التعليم في المعاهد ، وأن تكون الخطوة الى ذلك جريئة ، ويقصد بها وجه الله تعالى ، فلا يبالي بما تحدثه من ضجة وصراخ ، وقد قرنت كل الإصلاحات في العالم بمثل تلك الضجة .

وإلى هذا شجع الشيخ أيضا البعثات الأزهرية . ومتى كان الأزهر يقول بأكثر العلوم الحديثة حتى يذهب نوابغ طلابه يستزيدون من العلم في جامعات الغرب (١) ؟
وفي أي عهد قرئت الفلسفة في هذا الجامع وشرحت قضاياها بحرية كما كان في زمن المرافى ؟ إلى غير ذلك من الأمور التي كانت يريد بها إطلاق عقول الأزهريين من عقلاها وإدخالهم في طور جديد ينفع .

حاول الشيخ النهوض بالأزهر بتنقيف حريجيته ثقافة جديدة ، وكان يحز في قلبه تخالف أهله في علمهم وعملهم ، وهو القائل في وصفهم : « إنهم استكانوا في القرون الأخيرة إلى الراحة وظنوا أن لا مطمع لهم في الاجتهاد فأقبلوا أبوابه ورضوا بالتقليد ، وعكفوا على كتب لا يوجد فيها روح العلم ، وابتعدوا عن الناس جهلوا الحياة وجهلهم الناس ، وجهلوا طرق التفكير الحديثة وطرق البحث الحديث ، وجهلوا ما جد في الحياة من علم وما جد فيها من مذاهب وآراء ، فأعرض الناس عنهم ، ونقموا هم على الناس ، فلم يؤدوا الواجب الديني الذي خصصوا أنفسهم له ، وأصبح الاسلام بلا حملة ولا دماء بالمعنى الذي يتطلبه الدين » .

في إحدى جلسائنا في دار الشيخ المرافى في حلوان أيام كونه معتزلا الأزهر — وكثيراً ما كانت تدوم الجلسة ثماني ساعات — تفصل وقرأ على بعض تقاريره الديلية ، ومنها تقريره في الأحوال الشخصية الذي صدر القانون المصري عليه ، وهو التقرير الذي لم يتقيد فيه بالمذاهب الأربعة وأخذ من أكثر المذاهب المعتمدة ، وكتبه بيان يقل نظيره في الكتابات الرسمية ، فرجونه أن يطبع ما كتب فما رأيت منه ميلاً إلى النشر ، وكان عمله في هذا الباب لا يقل نفعا عن فتواه في الحد من الطلاق ، وقبله كان باب الطلاق مفتوحاً على مصراعيه .

ومما دل على علو كعبه في حرية البحث فتواه في جواز ترجمة القرآن ، وله في هذه المسألة الشائكة بحث ممنوع نشر في مجلة الأزهر . وفي هذه المجلة طائفة من تفسيره بعض سور الكتاب العزيز وبعض خطبه وآرائه ، وفيها فتاواه في المعضلات ، وهي تدور على تقريب الناس من الشرع والتوفيق بين الدين والمدنية ويبدو فيها نور العقل والتجديد .

وقد حملت تقاريره وتفسيره من أساليب البلاغة ما يستذكر ، وفي الرسائل الديلية التي دارت بيننا نموذج من فصاحته وبلاغته . وكان يكتب بدوز تكاف بالفاظ عذبة رقيقة لا سجع فيها ولا ازدواج . وعبارته رشيقة موجزة تشبه عبارات المؤلفين في القرن الرابع والخامس ، وتغلب عليه ألفاظ القرآن ، ونحس أن كاتبها مشبع إلى الغاية بالإنفاذ ومعانيه .

(١) سبقت وزارة المعارف في عهد وزيرها العالم معالي محمد طحى عيسى باشا إلى إرسال أول لجنة أزهرية إلى الغرب تألفت من أزهرين وغيرهم من طلاب الجامعة ودار العلوم كتب فيها التفوق لطلاب الأزهر أولاً وآخرها .

أما طلاقة لسانه فكانت كبلغة قلمه ، وربما ظن السامع وهو يتلو درسه أو عظنه أو خطبته أنه يقرأ من كتاب أو من حفظه لأنه يشاهده وقد نسق كل فكر الى جانب أخيه ، ووضع ما يروى وما يريد أن يعلق عليه في مواضعه .

كان الشيخ حنفى المذهب ، ويأخذ من المذاهب الأخرى ما يناسب العصر والمصلحة ، وكان في اطلاعه على المذاهب الأخرى آية ، وكثيراً ما قال للجنة الأحوال الشخصية عند البحث في الهبة والوصية والوقف : ضعوا من المواد ما يبدو لكم أنه يوافق الزمان والمكان ، وأنا لا يعوزنى بعد ذلك أن آتيكم بنص من المذاهب الإسلامية يطابق ما وضعتم .

ومن رأيه توحيد المذاهب ، وقال في إحدى مذكراته « يجب العمل على إزالة الفروق المذهبية أو تضيق شقة الخلاف بينها فإن الأمة في محنة من هذا التفرق ومن العصبية لهذه الفرق » . « ومعروف لدى العلماء أن الرجوع الى أسباب الخلاف ودراستها دراسة بعيدة عن التعصب المذهبي يهتدى الى الحق في أكثر الأوقات ، وأن بعض هذه المذاهب والآراء قد أحدثتها السياسة في القرون الماضية لمناصرتها ، ونشطت أهلها وخلفت فيهم تعصباً يساير التعصب السيامى ، ثم انقرضت تلك المذاهب السياسية وبقيت تلك الآراء الدينية لا ترتكز إلا على ما يصوغه الخيال وما افتراه أهلها . وهذه المذاهب فرقت الأمة التي وحدها القرآن الكريم وجعلتها شيعاً في الأصول والفروع ، ونتج عن ذلك التفرق حقد وبغضاء يلبسان ثوب الدين ، ونتج عنه سخف ، مثل ما يقال في فروع الفقه : إن ولد الشافعى كفء لبنت الحنفى ، ومثل ما يرى في المساجد من تعدد صلاة الجماعة ، وما يسمع اليوم من الخلاف العنيف في التوسل والوسيلة وعذبات العمام وطول اللحى ، حتى إن بعض الطوائف لا يستحى اليوم من ترك مساجد جبهة المسلمين ويسعى لإنشاء مساجد خاصة » .

وقال يجب أن يدرس الفقه الإسلامى دراسة حرة خالية من التعصب لمذهب ، وأن تدرس قواعده مرتبطة بأصولها من الأدلة ، وأن تكون الغاية من تلك الدراسة عدم المساس بالأحكام المنصوص عليها في الكتاب والسنة والأحكام المجمع عليها ، والنظر في الأحكام الاجتهادية يجعلها ملائمة للعصور والامكنة والعرف وأمزجة الأمم المختلفة كما كان يفعل السلف من الفقهاء .

وقال بشأن دراسة التفسير والحديث : يجب أن يدرس القرآن دراسة جيدة ، وأن تدرس السنة دراسة جيدة ، وأن يفهما على وفق ما تتطلبه اللغة العربية وعلى وفق قواعد العلم الصحيحة ، وأن يعتمد في تفسيرهما عن كل ما ظهر للعلم بطلانه وعن كل ما لا يتفق مع قواعد اللغة العربية .

وصرح أن الكتب الأزهرية معقدة لها طريقة خاصة في التأليف لا يفهما كل من

يعرف اللغة العربية ، وإنما يفهمها من مارسها وصرن على فهمها وعرف اصطلاح مؤلفيها . وقال : كان أكثر العلماء يطرقون الاحتمالات المتعددة في عبارات الكتب ، وكان هذا هو كل شيء اشتهروا به في العلم ، وما كان يوجد فيهم من يستطيع أن يحاضر في موضوع علمي ولا أن يلخص مسألة من المسائل بعبارة يمكن أن تفهم ، وما كانوا يعنون بالموضوعات العلمية من جهة الأدلة ومقارنة المذاهب ونقدها ، بل كانوا يعنون بالألفاظ فلم تكن الدراسة شبيهة مثمرة .

نعم هو يرى أن الشريعة جاءت لخير البشر ، وما دسه فيها بعض المتأخرين بجهلهم أو تساهلهم يجب أن ينق منها كما ينق الزؤان من صوبة الخنطة ^(١) ، ويعتقد اعتقاداً جازماً أن الله يحب أن تؤتى رخصه كما توتى عزائمه . وإليك ما قاله من مقالة أخيرة (جريدة الأهرام - غرة رمضان ١٣٦٣) تحت عنوان « مرحلة من الحياة تقضت » وفيها كلام جليل لا يقول مثله إلا رجل اتسع أفقه وعقله واستبطن أسرار مجتمعه وكان من عيار الشيخ المراغي في العلم ، قال :

هناك أمور ينبغي أن يترفق الفقهاء فيها بالناس ، وأن يراعوا قواعد اليسر التي هي أخص صفات الاسلام ؛ يراهم في العمال والمرضى ومن يخدم المرضى ومن يشابههم ، فيقربون الناس من الاسلام ولا يوقعونهم في الحرج . وعندى أن من يفطر بعذر ويصرح بذلك أظهر ممن يفطر من غير عذر أو بعذر ويظهر أمام الناس بالتقوى يرأى الناس ولا يخشى الله . والترخص في المرض أو الترخص للشقة في العمل يقدره أصحابها ويفتون أنفسهم فيها ، والرقيب هو الله ، والعلماء يبينون الحكم وهو إباحة الفطر للمريض ومن لا يقدر على الصوم ، أما تقدير القدرة فهو خاص بالعبد ولا شأن للعالم فيه . ثم استشهد بحديث : من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه .

ما كان الشيخ ممن يرضيهم الأمر الواقع بل كان ممن يجهدون بتغيير الحاضر بما ينفع المستقبل ويدعو الى الاعتبار بالماضى . استمعوا الى هذه الصفحة البديعة ، يصف فيها العصر الذى نشأ فيه شيخه الامام محمد عبده ، قال وأبدع :

« نشأ الشيخ في عصر من العصور القائمة ، كل شيء فيه محض مؤلم للنفوس الجرة والفطر الصادقة : الأمم الاسلامية تنحدر علمياً وسياسياً واجتماعياً الى أحط الدرجات ، وليس لطالب الحرية العقلية بينها متنفس ، والدين يفهمه الناس على غير وجهه ، واللغة العربية اختلطت بغيرها من لغات العجم ، والزلفى الى الله لها طرق لم يشرعها الله ، والزلفى الى الحسكام لها طرق لا يرضاها ذو مروءة . ذهبت ربح المسلمين وتقلت من أيديهم زمام الحياة العامة ، وتداغت عليهم الأمم كما تتداعى الأكلة على القصاع ، وليسوا قلة بين الأمم ، ولكنهم كغنائم السيل .

(١) هبنا لطالبكم الراداة العريضة
منه الطمان (اسواقنا)

« ذهب يتعلم فتعلم كما يتعلم غيره قواعد جافة ليس لها حياة تصلها بمنابها من الكتاب الكريم والسنة المطهرة ، ولا بأصولها من لغة العرب وأساليبهم وأدبهم ، وتعلم القواعد في مختصرات رضيها ذلك العصر المظلم ، لا تفهم إلا بشروح وحواش وصناعة خاصة ، فلا اللغة العربية بمسعدته على إجادة النظم والنثر والكتابة والخطابة وحاجة الحكومات والدول في التشريع والتنظيم ، ولا دراسة الكلام والمنطق بموصلة الى الاستدلال الصحيح الذى يطمئن اليه العقل ويقنع الخصم . المتحدث في الاجتهاد وتخير الاحكام لتطابق الاحكام حاجة العصر ولتلائم أصول الامم واحوال الازمنة مبدع مخالف لما أجمع عليه المحققون ، والداعى الى سيرة السلف الصالح داع الى مخالفة سيرة العلماء المبرزين ، والداعى الى كتب الاولين مقصر عن فهم كتب المحققين المتأخرين ، والمنادى بأن كتب الفقه وكتب التفسير وكتب الحديث ملئت بمعلومات خاطئة ، وبأوهام وقصص لفقها من قبل علماء الاسرائيليات مخالف لما درج عليه صالحو هذه الامة وجهاذتها » قال : « عاش الشيخ في هذه البيئة العلمية ضيق الصدر صرير العيش ، فن من أصحاب الفطر الصادقة والنظر السليم ، يؤمن بالقرآن ويعتقد أن فيه هدياً وفيه شفاء ، وأن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم عامة للأمة كلها وللعصور كلها ، يؤمن بأن هذه الدراسة الدينية والعربية تخرج للناس إماماً يهتدون بهديه ، ويشفى أمراض المجتمع في علمه وخلقه ونظامه ويضع له القوانين الصالحة والنظم اللائقة » ؟

الى أن قال : « عاملان من أقوى العوامل وقفاً في طريق (الشيخ محمد عبده) : عامل الحسد وعامل البيئة . ومن المحال أن يوجد رجل كالشيخ في صفاته وعلمه لا يحسد ، ولو أنه لم يحسد ولو أنه لم يرم بالكفر والضلال ، ولو أنه لم يشتد حساده ولم يقاوم أشد المقاومة بسبب الحسد لما كان شيئاً يتحدث عنه ولما كان رجلاً من رجال التاريخ » . قال وسبب ثالث له خطره « وهو أن جهة من جهة ذات نفوذ أظهرت عدم الرضا عن الشيخ وساعدت خصومه ، وأن جهة ذات نفوذ آخر ساعدته وشدت أزره فظن القوم أنه رجل يريد إفساد الدين وإفساد العلم » . ومن أشد مظاهر الحسد إذ ذاك أن طالباً من كبار العلماء كتب سلسلة مقالات في جريدة المؤيد يحرم فيها تعليم الحساب والجبر والهندسة والتاريخ في الأزهر ، لأن الشيخ كان أول المبشرين بتعليم هذه العلوم في الأزهر ، وكاد العناد يكون كفراً .

قال : « ترك بذور إصلاح التعليم الدينى وتعليم علوم العربية ، وبذور إصلاح القضاء الشرعى ، وبذور إصلاح المجتمع الاسلامى والامم الاسلامية ، وايس في رجال تفسير كتاب الله من يضارع الشيخ أو يقاربه في تطبيق آى القرآن على سنن الاجتماع ، وفي تصوير هدى القرآن وفي فهم أغراض الدين عامة » .

وختم الكلام عنه بقوله : « ودعته ليلة سفرى إلى السودان لتولى قضاء مديرية دنقلة

في نوفمبر سنة ١٩٠٤ فما قال لي : أنصحك أن تكون للناس مرشداً أكثر من أن تكون قاضياً . وإذا استطعت أن تحسم النزاع بين الناس بصلح فلا تعدل عنه إلى الحكم ، فإن الأحكام سلاح يقطع العلاقات بين الأسر ، والصلح دواء تلتئم به النفوس وتداوى به الجراح . وداعبني مرة أثر خروجي من امتحان شهادة العالمية فائلاً : « هل تعرف تعريف العلم ؟ فقلت له : نعم ، وكنت أحفظ إذ ذاك أكثر تعاريف العلم ، فسردت بعضها ، فقال : « اسمع مني تعريفاً مفيداً : العلم هو ما ينفعك وينفع الناس » . ثم سأل : هل انتفع الناس بعلمك ؟ قلت له : لا ، قال : « إذا أنت لست بعالم ، فانفع الناس بعلمك لتكون عالماً » .

هذا ما قاله الشيخ في شيخه ، وما قال إلا الحق ، والغالب أنه تقبل نصيحته بقبول حسن ، وأزمع أن يكون من ذلك اليوم عالماً كما يريد إمامه ينفع الناس بعلمه ، فخرى على هذه الخطة في القضاء ثم في مشيخة الأزهر ، وما أتفك يدرس ويعظ ويكتب ويفسر القرآن ويدعو إلى الأخذ بالكتاب والسنة ، ويسهل على قاصديه وسامعيه فهم الشريعة السمحة ، ويطبق أحكامها على العصر أو يطبق أحكام العصر عليها ، واعترف مرة أننا لم نوجد جديداً نافعا في علم من العلوم حتى الآن ، وما أصدق ما قاله عنه صديقي الأستاذ الشيخ محمود شلتوت من جماعة كبار العلماء : « إن الشيخ المراغي ما خرج بروحه وعلمه وعقله وتفكيره عن أن يكون تلميذ الأستاذ الإمام محمد عبده » .

وقال مرة : « ولدى الأمة الإسلامية قضايا كثيرة مقدمة : قضية الرجوع بالدين إلى كتاب الله وسنة رسوله وأعمال الراشدين ، وقضية التعليم الديني على وجه صحيح يوافق ما أثمرته التجارب في الحياة وما أخرجته العقول من ثمرات ناضجة ، وقضية حماية الدين من المدوان والدعوة إليه كما أمر الله بالحكمة ، وقضية نظام الأمم الإسلامية وارتباطها ببعضها ببعض ارتباط تعاون وتناصر ، وقضية الفقراء والضعفاء واليتامى والمساكين وتدبير أمرهم بحيث تخفف عنهم آلام الحياة وينتفع المجتمع بهم » .

« وهنالك قضية هي أم القضايا ، وهي مقومات الأمم الإسلامية التي يجب أن يحافظ عليها ويبني المجد على أسسها ، وهي قضية دقيقة ينور من أجلها عن قصد أو غير قصد خلاف بين المتعلمين وغير المتعلمين والمتقدمين وغير المتقدمين ، ويترتب عليها نظام الاجتماع وقوانينه ونظام التقاليد والعادات .

« ولدى الأمم الإسلامية ماض يحجر أثواب الفخر والشرف في كل ميادين الحياة : في ميدان العلم وفي ميدان الفنون وفي ميدان السلطان والعز ، وميدان التشريع والقانون ، لكن بعض الناس يحاولون طمس أعلام هذا الماضي والتخلص منه والزراية عليه والحط من شأنه ، ويحاولون بناء مجد جديد على أرض بيضاء بحيث لا يكون بين الحاضر والماضي صلة .

« وليس أدعى إلى الدهشة ولا أبعث على اللوم من هذه المحاولات التي فيها عقوق الأبناء للآباء ونكران الجليل وإنكار التاريخ ، وفيها لؤم الطباع وسفه الجاهل وطيش المفرور .

« رجل يستطيع عاقل أن ينكر أن لنا أسساً صحيحة فويمة من دين وعلم وتقاليده ومقومات من حقها أن نحافظ عليها وأن نعتبرها راثاً عزيزاً لا يلبق أن نبده كما يفعل الوارث السفیه ؟

« يحاول بعض الناس هذا مع أن الأمم التي ليس لها ماض تحاول أن تخلق لها نسباً باض مجيد . وبعض الأفراد الذين لهم ذكر نابه بأعمامهم وليس لهم نسب معروف بالمجد يحاولون أن يخلقوا لهم أنساباً معروفة بالمجد والشرف ليعودوا في نفوس الأبناء شعوراً بعظمة من حقها أن يحافظ عليها » اهـ

وصف ما حمله القرآن من التعاليم ، ورد دعوى بعضهم أن فيه علوم الأولين والآخرين بقوله : « إنه كلما حدثت في العالم فكرة طريفة اجتهدوا في تلصصها في القرآن وفرحوا إن استطاعوا الاهتداء إلى إشارة بعيدة اليها ، يفعلون هذا في جميع النظريات المرتبطة بالكرون وأسراره وقواعد الاجتماع والسياسة ، ولكن من حقهم أن يفهموا أن المعارف البشرية غير مستقرة ، وأنها تتغير ويتجدد بدلها معارف أخرى تختلف عنها أو تنافسها ، وأنه ليس من الحكمة أن تربط هذه المعارف غير القارة بكتاب الله الثابت الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه . ومن الخير أن ندع كتاب الله يقرر لنا أحكام التشريع ويهدم الوثنية ويبحثها من أصولها ، ويرفع العقل البشري إلى المستوى اللائق به ، ويأخذ بيد الإنسان إلى المقام الأسنى اللائق بخلائقه في الأرض ، ويبين لنا العبرة والعظة بأحوال الماضين ، ويفرس في نفوسنا تلك الأخلاق الفاضلة من الصبر والقناعة والرضا والشجاعة ، ويفتح أمامنا أبواب العلم والهداية بما أشار إليه من وجوب النظر فيما صنعه الله . خير لنا أن نفعل ذلك ونذع العلماء يقررون معارفهم ويستدلون عليها ، يحملون نتيجة خطمهم إذا تغيرت معارفهم وأثبت العلم بقيمتها . قال : نعم إن في الكتاب الكريم آيات لا تفهم حق الفهم إلا بمعارف فلسفية وطبيعية ، ولكن تلك لم تسق لتقرر تلك المعارف وإنما نزلت للهداية والعبرة . فليس القرآن الكريم كتاب حساب وفلك وطبيعة ، وإنما هو كتاب هداية وتنظيم لعلاقة الإنسان بربه وعلاقة أفراد الناس بعضهم ببعض » .

أجمع انصار السيد المراغي وخصومه على أنه كان من خير من تولى رئاسة الأزهر ، لصفاته كثيرة اجتمعت له وقل أن نجتمع لغيره ؛ ذلك لأنه كان يعرف ما هنا وما هنالك ، ويعد من العلماء العارفين بأزمانهم معرفة ثاقبة .

كان يستميل بحديثه قلوب سامعيه ، وتفعل في نفوسهم نبراته اللطيفة وإن كانوا ممن لا يوافقونه على آرائه كلها . تأدب "بأدب الدنيا وأدب الدين ، إذا حاشته تتحقق أنه بلغ الغاية

في التهذيب الحديث مضافاً الى ماتحلت به نفسه من فضائل الاسلام ، ولا تلبث أن تقول إن الشيخ يصلح لإمامة الدين كما يصلح لإمامة الدنيا ، أى أن يكون شيخ الاسلام يدعو الى عقيدة وإيمان ، وأن يكون رئيس وزارة إيمانى من أحداث الزمان ما يمانى .

ولا نكون الى الغلو إذا ادعينا أنه قل في أمثاله من استجمعوا صفات العظمة الحقيقية . وله في باب الاربحية أشياء عرفت عنه بالعرض تدل على صفاء روحه وفضل تبحره ؛ كان يتصدق في السر وهو ليس بغنى ، ويأخذ العهد على من يعطيه أن يسكنه ما وصل اليه منه .

ولقد انتخبه المجمع العلمى العربى عضواً مراسلاً فيه فاعتذر بكثرة أشغاله قائلاً إنه استقال من المجمع القوى في مصر للسبب ذاته .

أخذت الاعمال الادارية والسياسية والقضائية من وقت الشيخ الاكبر ، فكان شأنه شأن أسناده الشيخ محمد عبده لم يخلف مؤلفات كبيرة يودعها لباب علمه وزبدة تحقيقه ، وما خطته يمينه دعت الى تسطيره الدواعى وقام به لأمور اقتضتها حالة عمله . وعندى أن تقاريره ومذكراته ومقالاته كافية في الحكم عليه وافية في تخليد اسمه إذا تيسر لها من يجمعها ويطبعا (١) .



أهم ظاهرة بارزة في أخلاق الاستاذ المرافق تجرده من المطامع التي قد يتلوث بها بعض أهل صناعته ، فما أتى ما يشين سمعة العالم . وعلى طول تقلبه في درجات القضاء وآخرها رئاسة المحكمة الشرعية العليا ما أحصيت عليه زلة تنال من مروءته وشرفه ، وكانت أحكامه مثال العدل يتعده المتحدثون بها لا يصانع في الحق ولا يداجى . وفي قضية الارث الكبير الذى كان يقدر بلالين من الجنبات وما أبداه الشيخ من المثانة في إحقاق الحق مثال من تقواه ، حتى لقد قذف بماء النفضة في عنقه يوم صدور الحكم وهو في طريقه الى المحكمة في القاهرة ليتعذر عليه الحضور فأصر على الذهاب وأصدر حكمه ، ولو كان حب الدنيا مستحكماً فيه أكثر من حب الدين لجوز لنفسه تناول ما يغنيه من المال يدفعه المدعى راضياً ، ولكن شيخنا كان في سب حساب يوم الحساب .

ولما استقال من قضاء الخرطوم وعاد الى القاهرة أخذ يتبلغ بوظيفة مفتش مساجد في الأوقاف ، وصلى الخديو الجمعة في مسجد من مساجدها فلاحظ على المفتش أن الامام أعمى ،

(١) أخبرني شفيق صاحب الترجمة الاستاذ الشيخ أحمد مصطفى المرافق وقد قرأت عليه ما كتبت واستفدت منه أموراً في حياة الاستاذ الاكبر ، أنه خلف مذكرات يومية يشرح فيها مواقفه مع رجال السياسة من المصريين والاجانب ، وأن أسرته لا تريد نشرها قبل أن يمضى زمن على وفاة صاحبها لان فيها أساساً لبعض المعاصرين .

فأجاب أن الامام وهو العلامة الدجوى من جماعة كبار العلماء استوفى شروط الامامة، والعمى لا يمنعه من القيام بما يطلب منه ، فغضب عزيز مصر . ولما عرضت عليه حكومة السودان منصب قاضى القضاة اشترط أن يكون تعيينه بمرسوم خديو فقيل له : إن مشاهرتك ستزيد بضعة أضعاف راتبك الحالى وأنت تشترط مثل هذا الشرط ، فكان له ما أراد . أما الخديو فرجع عن رأيه فى المراغى وأدرك أنه قوال بالحق يهتم لدينه ولا يعبأ بالظواهر كثيرا .

ولما ثارت مصر وانتقلت أخبار النورة الى السودان كان قاضى قضائها السيد المراغى فى مقدمة المتظاهرين ، فلم يسع حكومة ذلك القطر إلا أن تمنعه إجازة طويلة ، فأضاع منصبه ليخدم وطنيته . وجرى فى مجلسه ذكر هلاك من لم يسلموا من الافرنج فأورد أسماء عظماء خدموا الانسانية منهم وقال : إنهم ناجون لأن الدعوة الى الاسلام لم تصلهم ونحن قصرنا فى هدايتهم ، فلو كنا عرضنا عليهم الدين وما استجابوا له ربما ساغ لنا أن نقول إنهم هالكون .

ولما مر ملك انكلترا بسواكن ، وكان قاضى قضاة السودان ، استقبله مع الحاكم العام وصاحفه كما يتصافح المتماثلون ، فقال بعض الانكليز : كان يصح له أن ينحن للملك كما انحنى المستقبلون قال : ليس فى ديننا سجود لغير الله .

وفى أيامه انقسم الأزهر قسمين بتأثيرات الحزبية ، فاضطر شيخه الى أن يقف الى جانب الفريق الذى اعتقده على الحق ، فسبب له ذلك اضطرابات نفسية ما حدثت مغبتها على صحته . ولو سئل عن سلوكه هذا ما أعدم حجة يبرىء بها نفسه من الوناء المشهود فى إنهاض الأزهر على عهده الأخير . والداخل يعرف ما لا يعرفه من وقف وقعة المتفرج فى الخارج .

المراغى كان على أوفر نصيب من العلم والعمل ، فهو شخصية نادرة بين أهل جيله ، رحمه الله رحمة واسعة !

محمد كرد علي

ك ل ة

وها هو ذلك المثل الروماني الجوستنياني في التجميع العلمى القانونى الرومانى فى أوائل القرن السادس الميلادى ، مثل قائم حتى لم يموت ولن يموت . هذا التجميع فى عهد الامبراطور جوستنيان فى وضع الاصول الرومانية الفقهية لمدة ١٢ قرنا فى الموسوعة الفقهية (١) كان سببا قويا وذريعة صادقة فى حفظ آثار رجال الفقه الرومانى مدة الاحقاب وفى ذبوعها العالمى بعد ذلك ، ذلك الذبوع الذى جعل القانون الرومانى قانونا عالميا وعلمنا قانونيا عالميا أيضا (٢) .

(1) Digest.

(٢) نشرنا بمجريدة الاهرام الصادرة فى ١١ و ١٢ و ١٣ يونيو سنة ١٩٢٤ ما يأتى ملخصه بعد لمناسبة ظهور رسالة الدكتور عبد الله العربى بك (مدير إدارة بوزارة الداخلية) ، وبالرسالة مقدمة للأستاذ الكبير « لامير » ، ونشرنا بمحوثا ثلاثة بهذا العنوان : « النتائج العلمية للاستقلال السياسى ، مصر فى عصبة الأمم العلمية ، الشرائع المصرية : ماضيها — حاضرها — مستقبلها » وبدأنا البحث الأول لنا بما يأتى :

« حقق علماء القانون وأكادما ، وعلى رأسهم البعثة المؤلف المعروف « رينفيو » بكتايبه المطبوعين سنة ١٩٠٢ وسنة ١٩١٢ أن للقوانين المصرية القديمة للفراعنة شأنًا يذكر فى تكوين الشرائع الرومانية فى عهدها الأول وهو عهد قانون الاثنى عشرة لوحة المشهور . وذلك لأن قانون « بوخوريس » من ملوك الاسرة الرابعة والعشرين قد طبقت شهرته الآفاق بما عرف فيه من دقة الاحكام .

وعقبه قانون « أمازيس » بما لا يقل شهرة عنه . وأخذ « سولون » المتشريع اليونانى المعروف أصوله القانونية من قانون بوخوريس هذا ، ومن قانون أمازيس ، بما استفاد مما قرره « هيرودوت » سنة ٤٥٦ قبل الميلاد . ولما أرادت روما فى عصرها الأول أن تضع شرائع ثابتة حسبما لما اشتهر فيها من النزاع المستطير بين طبقة الاشراف الرومان وهوامهم ، بعثت وفودها إلى اليونان فوضعوا لها أول حجر فى بنائها التشريعى الرومانى الخالد ، وهو قانون الاثنى عشرة لوحة .

والتشابه مستحكم الاطراف بين هذا التشريع الرومانى القديم وقانون أمازيس بما لا يترك مجالاً للتردد فى أن الرومان أخذوا عن اليونان وأخذ اليونان عن فراعنة المصريين فاصبح بذلك ، التشريع المصرى ، مصدرا لهذا التشريع الرومانى الحى الدائم الذى لا يموت . وهاهو

التشريع الرومانى يدرس فى كليات العالم بدقة وحيطه . وأثبت التحقيق التاريخى أن جل مبادئه وعلى الأخص فيما يمس بنظرية الالتزامات والمدائنات قد تسرب الى الشرائع المصرية الحاضرة . إذا علم ذلك جزمنا بأن للشرائع المصرية القديمة مساسا كبيرا جدا بالشرائع العالمية الحاضرة . وبذا تكون مصر ذات مدنية قديمة راقية فى جميع صورها الفنية والعلمية ، ويستحيل أن تنبت المدنية فى شعب خامل ذابل . بل هى لا تنبت إلا فى البيئة السليمة عقلا وجسما . وإذا كانت للشعب بدء حياة خالدة أصبح من المستحيل قتل النخوة المتأصلة فيه من قديم ، بل لا بد أن يحياحياته الأولى مادامت تجري فى شرايينه دماؤه الأولى .

« ويؤكد « لامبير » بأن الشريعة الإسلامية فى العصور الوسطى لتاريخ المدنية الإسلامية قد حملت هى الأخرى على إمداد المدنية المسيحية الحاضرة بقسط وفير من الأصول العامة ، وأنها قامت بجانب المدنية اليونانية والرومانية بتغذية هذه المدنية الحاضرة . ويفهم من هذا التحقيق التاريخى أن الشرائع الفرعونية والشريعة الإسلامية أثرا ظاهرا فى تغذية الشرائع والمدنية المصرية . ويجب الجزم بأن الشعب الذى يعمل على تغذية الغير وإمداده ، شعب حى ذو مزايا وخصائص تتم على خلوده » اهـ .

وأعقبنا المقال بمقالين آخرين ظهرنا كما قلنا فى ١٢ ، ١٣ يونيه سنة ١٩٢٤ من جريدة الأهرام تعليقا على الرسالة المذكورة . وقلنا أيضا فى مقالنا الثانى ما يأتى :

« لامبير من الأعلام المعروفين فى علم القانون المقارن وله آراء ذات جسامه خاصة ومرام بعيدة . وهو إن اتسع إليه مجال التفسير فى رسم المناهج وتلمس وسائل العمل ، فإنه وثاب فى تحقيقها لا تقصده مضاعفة الجهود ولا طول العمل . عرف لامبير فى المؤتمر العلمى للقانون المقارن الذى عقد فى باريس سنة ١٩٠٠ بأنه وزميله « سالى » من أنصار هذا العلم الحديث ، وأن فى تحقيق بعض رغائب العلم لا بد من صرف مجهودات حمة وتذليل صعوبات عدة . وأخذ يعمل « سالى » بباريس ولامبير بليون » واستعان لامبير بطلبة القانون المصريين فألف هؤلاء تحت كنفه كتباً كانت ولا تزال محلا للتحديث فى المجلات العلمية فى أوروبا ، وأظهر دليل على ذلك ما كتبه العالم الألمانى « جوزيف كوهلر » عن صديقنا المرحوم الدكتور محمود فتحي الحامى ببنى سويف ، إذ أضاف اللثام فى تقريره له عما للشريعة الإسلامية من القدر الممل والقسم الثابتة فى تقرير الأصول القانونية ، وكان ذلك فى سنة ١٩١٢ . وها نحن نرى اليوم طالما إيطاليا مدرسا بجامعة نابلى بإيطاليا « إيفاريستو كاروزى » قد أخرج لأهل بلده عام ١٩١٩ كتابا ينقد فيه كتاب الدكتور فتحي نقدا علميا يدل على أن الكتاب المصرى رغم نفاذ طبيعته بمجرد ظهورها فإنه لا يزال محلا لنقد العلماء ولتقرير

قيمتها العلمية بينهم. وإن كان صاحب الكتاب قد مات قبل أوانه ، فإن علمه لم يموت ، ولا يزال هذا العلم المصرى العلمى خفاقا على صروح العالم العالمى ، إذ علم العلم يخفق فى كل مكان ، وله سلطان علمى فى الظهور ظهورا علميا ، بما لا يملكه العلم السياسى ، بلا غزو ولا إهراق دماء . هـ .

ثم قلنا ما يأتى فى حينه : « مؤلف الرسالة قد قام بالوفاء بهذين الشرطين واستطاع القيام بعمل مقارنة علمية صحيحة بين المبدأين الكبيرين اللذين يعمل معهما القانون المقارن على التفرقة بينهما تفرقة ظاهرة ، وهما المبدأ القائل بمعالجة المسائل القانونية فى ضوء القانون العام الانجليزى الأمريكى ، والمبدأ القائل بالأخذ فى هذه المعالجة بالطريقة التى رسمها قضاء الرومان عند الفصل فى الاقضية المطروحة لديهم وعند تطبيق القانون الرومانى البحث . ويظهر أن الطالب المصرى « العربى » قد وفق إلى الوقوف على مبلغ التفرقة بين هذين المبدأين لما حصله من العلم فى إنجلترا وفى فرنسا معا واستطاع التمييز بينهما تمييزاً يشمر معه المطالع لكتابه مبلغ ما تستفيد به الجماعة من الأخذ بأحد المبدأين دون الآخر . لأنه إذ بينا الأول يرمى إلى المحافظة على التقاليد القديمة حتى ولو كان فى ذلك بعض المساس بالنظام العام كما يقول الانجليز والأمريكان ، Droit publicil كما يقول الفرنسيون وهو ما يسمى بمبدأ القضاء الآلى Jurisprudence mécanique فإن المبدأ الثانى الرومانى يعالج الأمر بما يتفق مع ضرورة التوفيق بين المصالح المتعارضة . المصلحة العامة ، والمصلحة الخاصة ، وهو ما يسمى بمبدأ القضاء الاجتماعى . Jurisprudence Sociologique . وقد لاحظ الدكتور العربى بحق كما لاحظ ذلك لامبير أن تشيع القضاء الانجليزى بالأخذ بالمبدأ الأول ، فى حالة النظر فى قوة الشركات الضخمة والنقابات الكبيرة ، إنما يرجع الى شدة تمسك قضائهم بالأخذ بالأصول المنطقية البحتة وعدم الخروج عما يقرره عندهم ذوو الآراء فبهم ، بينما المسائل المطروحة على القضاء مسائل قانونية صرفة بل هى تجمع بين القانون وأصول علم الاجتماع . أى أنه لا بد فى حل هذه المسائل من الأخذ بقسط من المرونة حتى يمكن بها معالجة الاشكالات الحيوية علاجا يتفق مع القانون من جهة والضرورات العملية من جهة أخرى . ولذا أبى صاحب الرسالة إلا أن يأخذ فى هذه الحالات بالمنهج العلمى الذى عمل به الانجليز أنفسهم فى بعض نواحي القضاء عندهم . هـ . وقلنا بمقالنا الثانى أيضا : « وقد اتفقت الآراء الآن فى البيئات العلمية بأوروبا على اعتبار العلوم الاجتماعية وسيلة ضرورية فى تكوين الملكات القانونية ، باعتبار أن العلوم القانونية نفسها ربما لا تخرج هى الأخرى عن كونها صورة من هذه العلوم الاجتماعية وشعبة من شعبها . ولقد أصبحت دراسة القانون فى الاوقات الحاضرة متأثرة هى الأخرى بعوامل الرقى المتواصل ، وتتبع فى طريقها أدوار التطور الذى يحكم الشؤون الحيوية الأخرى اقتصادية كانت أو سياسية ، وربما يتعذر على الرأس القانونية أن تكون مفكرة تفكيراً صحيحاً

ذا ثمرة ناضجة إلا إذا أملت بعلم تطور الشعوب ، وحكم النواميس الطبيعية فيها ، ووقفت على مبلغ المقدمات والنتائج العمرانية لكل بيئة من البيئات الكبرى العالمية . وها هي الدورة التشريعية في العالم الآن بعد انتهاء الحرب الكبرى ، قد أخذت في وضع أسس تشريعية جديدة على أنماط تستند في أصولها إلى ما أظهرته الحرب وأبانت له المفكرين من الأسباب والنتائج المختلفة .

والقانون على تلك الحال يتطور هو الآخر مع تطور الجماعات ، أي لا بد أن يكون محكوما هو الآخر بنفس النواميس الاجتماعية التي تحكم الجماعات بالقسر والقوة الطبيعية . أو ليس القانون في ذلك مظهرا حقيقيا مستقيما من المظاهر الحيوية المعروفة في علم الاجتماع ؟ وبما يبعث الثقة إلى النفس في صحة هذا النظر ما اعتاده الآن المؤلفون القانونيون في دروسهم للانطلاقة والمبادئ القانونية أن يهجوا فيها لا منهج المنطق البحث وهو منهج جاف غير مجد وضار ، بل منهج التحليل الطبيعي والتاريخي والوقوف على الأمور المختلفة للجماعة ووزن الآثار المترتبة عن كل دور وتطور قانوني والتدبر في مبلغ مفعوله بالجماعة . كل هذا في ضوء النواميس العمرانية والامتانة بالعلوم الاجتماعية . هـ

عبد السلام زهني

مركز تحقيق الدينيا

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « الدنيا عرض حاضر ، يأكل منه البر والفاجر ، والآخرة وعد صدق يحكم فيها ملك قادر » ، يفصل الحق من الباطل .

وقال عليه الصلاة والسلام أيضا : « الدنيا خضرة حلوة ، فمن أخذها بغيرها يورث له فيها ، ومن أخذها بغير حقها ، كاذ ، كالأكل الذي لا يشبع » .

هذا هو القول القوي في أمر الدنيا ، ولكن الشعراء أكثرها من ذمها وتغننوا في تقبيحها ، وكل ما تقوموا عليها أنها لا تعطى جزاها ، وأنهم لا يريدون منها انتقالا . فقال شاعر :

يا خاطب الدنيا إلى نفسها تنج عن خطبتها تسلم
إن التي تخطب غرارة قريبة العرس من الماتم

وقال غيره :

هي الدنيا إذا كلمت ونم سرورها خذات
وتعمل إلى الذين بقوا كما فيمن مضى فعلت

الاسلام والعمل

عنى الاسلام بتربية الانسان ، وأراد أن يجعل منه كائنا كاملا يستشعر العزة والكرامة ، ويبذل دونها راحتة وجهده ، فيحقق الحكمة الالهية السامية من خلافته في الارض .

لذلك نرى الاسلام يكثر من التوجيهات السديدة نحو العمل ، ويحث عليه ، فيقول « هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور » . وكأنه سبحانه إنما ذلل الارض وأودع فيها تلك القوى المنبثة في كل جزئياتها ، ليعمل الانسان فيها ، ويستغلها لمصلحة الكون فيممره : « الله الذى خلق السموات والارض وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره ، وسخر لكم الأنهار ، وسخر لكم الشمس والقمر دائبين ، وسخر لكم الليل والنهار . وآتاكم من كل ما سألتموه ، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الانسان لظلوم كفار » سخر الله كل هذه القوى المنبثة في الكون للانسان ، ووجه المسلم إلى استغلالها واستخدامها لتسكون له الصدارة بين طبقات العالمين .

لم يطلب الاسلام من أتباعه أن يقيموا في المساجد يقومون ويقعدون ، كما فهم أتباع الأديان السابقة ، وإنما وجههم وجهة إصلاحية عامة ، تشمل الدنيا والآخرة معا ، فلم بدع إحداها تطفئ على الأخرى ، فمن مبادئه : « ولا رهبانة في الاسلام » ويقول في دستوره : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله ، واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون » أى فإذا أدبتم صلاتكم ، وفرغتم من مناجاة ربكم ، وطهرتم نفوسكم ، فأتجهوا إلى العمل الذى يحفظ عليكم في هذه الدنيا حياتكم ، ويعينكم على أداء واجبكم ، فهو كذلك عبادة لله ، وتقرب من الله .

بل لقد رفع الله من شأن العمل والسعى في سبيل الرزق ، وتمعير الكون ، فجعله في مرتبة الجهاد في سبيله فقال سبحانه « وآخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله ، وآخرون يقاتلون في سبيل الله » .

ولقد كان هذا التوجيه السليم ، وهذه الهداية الصادقة ، عاملا على فتح ميادين النشاط والعمل للمسلمين في صدر الاسلام ، لافرق عندهم بين الجهود العقلية والجهود الجسمية ، فبرزوا في كلا الأمرين ، وكانت جهودهم مكملة بالنجاح ، فحملوا مشعل الهداية ، وطاقوا به جميع الأرجاء ،

حتى ركزوا رايهم خفاقة في جنبات المعمورة ، مؤذنة بأن هذه الفئة من الناس ، التي جعلت دستورها القرآن ، ودأبت على العمل بتوجيهاته ، إنما هي خير أمة أخرجت للناس ، وهي الدولة الفاضلة التي طالما حلم بها الفلاسفة والمفسكرون ، ولم يستطع قانون ولا دستور أن يحققها على الأرض حتى حققها القرآن .

وإن ديننا لم يضيق من حدود النشاط ، ولم يصغر من معانيه مهما ضعفت ومهما قلت ، لجدير بأن يتزعم الأديان ويتأسس الشرائع .

لقد كانت القوامون على هذا الدين يفهمونه بأرواحهم ، ويفوضون فيه بمقولهم ، ويتذوقونه بأفئدتهم ؛ فكان حيا في نفوسهم ، قائما في رؤوسهم . كانوا يدركون مراميها ، ويعرفون مقاصده فيعملون على إظهارها .

جلس المربي الأعظم صلى الله عليه وسلم يوما مع أصحابه فنظروا الى شاب ذي جلد وقوة قد بكر يسمى ، فقالوا : ويح هذا لو كان شبابه وجلده في سبيل الله ۱۱ . فقال رسول الله : « لا تقولوا هذا ، فانه إن كان خرج يسمى على ولده صفارا فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسمى على أبوين شيخين كبيرين فهو في سبيل الله ، وإن كان خرج يسمى رياء ومفاخرة فهو في سبيل الشيطان » . هكذا كان عليه السلام حريصا على توجيه أمته إلى العمل الصالح المنتج ، فما كان يدع فرصة تمر دون أن يكون له نصيب سديد ، وحكمة بالغة يرفع بها أمته من درك الذلة والمهانة إلى ذروة العزة والكرامة .

جاء يوما رجل يسأله فنظر إليه فوجده قويا قادرا على العمل ، فسأله عما يملك ؟ فقال إنه لا يملك إلا حلسا ينام عليه ، وقعبا يشرب به ، وحبلًا يستقي به من البئر ؛ فأمره عليه السلام بإحضارها ؛ فلما أحضرها باعها عليه السلام الى الحاضرين ثم اشترى له فأسا ، وأعطاه الحبل ، وأعطاه ما بقي ليأكل به ثم أمره أن يذهب ويحطب ولا يأتي إلا بعد نصف شهر ، ففعل ، وجاء وأخبره أنه قد نجح في عمله ، وأنه ادخر بعد حاجاته مالا ، فقال عليه السلام « هذا خير لك من أن تأتي يوم القيامة والمسألة نكتة في وجهك » ويقول في مثل هذا : « لا تزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله تعالى وليس في وجهه مزعة لحم » ويقول حاثا على العمل محببا فيه دائما للاستجداء مريضا فيه : « لأن يأخذ أحدكم حبلًا فيذهب فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيكف بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه » ويقول : « من استغنى أغناه الله ، ومن استعف أغناه الله ، ومن استكف كفاه الله ، ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف » .

ولقد حرص صلى الله عليه وسلم على أن يفهم المسلمين أن الدين ليس اعتكافا في المساجد ولا بعدا عن الناس وخلوة في الصوامع . جلس يوما فسمع أصحابه يثنون على رجل فقالوا :

« إن فلانا يصوم النهار ويقوم الليل ويكثر الذكر . فقال : أيكم يكفيه طعامه وشرابه ؟ فقالوا : كلنا يا رسول الله ، فقال : كلكم خير منه . »

وقد تأسى به عليه السلام خلفاؤه وصحابته رضوان الله عليهم فعملوا على توجيه الأمة الى العمل المنتج ؛ فهذا أبو بكر رضى الله عنه يأبى أن يعيش وهو خليفة المسلمين من فضل سواه وأن يكون مالة على المجتمع ، وهو الذى وهب نفسه وحياته للمجتمع ، فكان يذهب الى السوق يحمل أثوابا ينجر فيها ولا يرى في ذلك عيبا ولا نقصا يتعارض مع مركز الخلافة ؛ فلقبه صهر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح رضى الله عنهما فقالا له : كيف تصنع هذا وقد وليت أمر المسلمين ؟ فقال : فمن أين أطعم هيالى ؟ قالوا : نفرض لك جملا في بيت مال المسلمين ، فقبل ذلك على أن ما يأخذه أجرا على عمله .

أرأيت كيف أن الخلافة في جلال شأنها وعظمة مركزها لم تصرف أبا بكر عن الحقيقة التى آمن بها وجعلها نصب عينيه ، وهى أنه رجل مسلم ، ومن واجب كل مسلم ألا يترفع عن العمل ، وألا يعبث في نفسه روح النشاط ، وأن يكون أداة صالحة في بناء المجتمع . ؟

وهذا صهر يلقى أناسا من أهل اليمن فيقول : من أنتم ؟ قالوا : متوكلون . قال كذبتم ما أنتم متوكلون إن المتوكل الذى ألقى حبة في الأرض وتوكل على الله .

كان المسلم في صدر الاسلام — لكثرة هذه التوجيهات — يفضل أن يموت جوعا على أن يمد يده للسؤال ، وما كان يتكبر أو يتعاطم على عمل مهما قل شأنه في سبيل العيش ؛ فهذا الإمام الأعظم والسيد الكريم ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وزوج ربهاته على بن أبى طالب رضى الله عنه حظه الجوع يوما وليس عنده ما يسد به رمقه ، وما يدفع به غائلته ، فلم يستكن ولم يذل ولم يسأل . ولقد كان جديرا بل أن يأمر فيجاب ، ويشير فيسرع الكل في تلبية رغبته وإجابة طلبته ، وإنما تماسك ، وراح يطلب القوت من أسبابه ، وما هو ذا يصف لنا حاله تلك فيقول : « جمعت يوما فخرجت أطلب العمل في عوالى المدينة ، فإذا أنا بامرأة قد جمعت مدرا تريد به بالماء ، فبادلتها كل ذنوب على تمره ، فلاثت ستة عشر ذنوبا حتى مجلت يدى ، ثم جثت المرأة فبسطت كفى لترى أثر العمل ، فعدت لى ست عشرة تمره ، فأتيته رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبرته فأكل كل معنى منها . نعم أكل الرسول معه لأنها خير كسب كسبه ، فقد بذل فيه قوته ، وتصيب عرقه ، ومجلت يده ، وحفظ ماء وجهه ، وما كنا ننظر من على غير هذا ، وهو الذى نفذت بصيرته في تعاليم الاسلام حتى أشربت بها روحه . ألم يستمع الى الرسول وهو يقول : « أشد الناس عذابا يوم القيامة المسكين الفارغ » ، والمسكين الذى يكفيه

غيره ضرورات الحياة ، والفارغ المتعطل المخلد إلى البطالة والكسل . ألا يكون ذلك دافعا لعملي وأمثاله لأن يعمل ويمجد ويحفظ على نفسه ماء وجهه ، ويبذل دون ذلك قوته وعرق جبينه ؟ لذلك كان يرى المسلم نفسه أكرم عليه من أن نذل لمسكرم ، أو تسترق لمستعبد مهما علت سماحته ، وعظمت مروءته ومكانته .

روى أن عثمان بن عفان رضى الله عنه أرسل إلى أبي ذر رضى الله عنه بصرة فيها نفقة على يد عبد له وقال له : إن قبلكم فأنتم حر . فأناه بها فلم يقبلها . فقال : أقبلكم بركم الله فإن فيها عتقى . فقال أبو ذر : إن كان فيها عتقك فقبلكم رقى ، وأبى أن يقبلها . لله درك يا أبا ذر ما هذا الإياء الكريم ، وما تلك النفس الحرة ؟ ألا إنها روح الاسلام حلت فيك ، وتعاليم سيد الآنام أثرت وآنت أكلها عذبا شهيا .

ما أخرجنا نحن المسلمين طامة والمصريين خاصة ، في هذه الفترة من الزمن التي تسطر فيها مصائر الأمم الى أن نفقد ببصيرتنا في تعاليم الاسلام فنعمل بروحه ، ونهتدى بهديه ، ونسلك الجادة التي رسمها ، والطريق التي خطها .

إن هذه الأمراض الاجتماعية المتفشية بين المسلمين ، والتي ضج منها المصلحون وبئس كثير منهم من إصلاحها ، ترجع في معظمها إلى ذلك الداء الوبيل ، داء البطالة والكسل ، فلو حوربت وانجبه الجميع نحو العمل لقضى على كثير من الشرور والآثام . لو حوربت البطالة لما رأيت سارقا ولا متسولا ولا فاشا ولا خادعا . وليس ممبيل الى محاربتها خير من تهاذ روح الاسلام في النفوس وسيطرة تعاليمه عليها ، والسبيل إلى ذلك سهل ميسور ، فعين الاسلام لا ينضب ، وروحه لا تضعف ، ولا يزال هذا الكتاب الكريم مستعدا لأن ينقذ البشرية من أسباب الفساد ، ويهديها سواء السبيل ، كما أنقذها وهداها مرات ومرات ؟

مصطفى المصري

خريج قسم الدعوة والارشاد

الخطابة في الاندلس

— ٣ —

ومن الاسباب أيضا التي قضت على هذا التراث الفكري الجليل ما قام به أعداء الاسلام والعروبة من حملات جائرة ومكاييد شنيعة ، أضاعوا بها معالم الأدب ، وأنوا على أكثر آثاره إحراقا وتمزيقا وتبيدا ، وسنوق هنا بعض الشواهد على هذا التبيد وذلك الاحراق ؛ فقد جاء في كتاب « ديوان التحقيق والمحركات الكبرى » المؤرخ الكبير الأستاذ محمد عبد الله عنان ما نصه (١) :

« ... في سنة ١٤٤٩ ذهب الكردينال كمنيس الى غرناطة ، وحث مطرانها الدوق نالافيرا على اتخاذ وسائل جديدة لتنصير المسلمين ، وجمع فقهاء المدينة وشرح لهم أصول النصرانية ودعاهم الى اعتناقها ، وأغدق عليهم التحف والهدايا ، فأقبل بعضهم على التنصير ، إما اتقاء الاضطهاد ، أو اغتناما للحظوة ، وتبعهم جماعة كبيرة من العامة .

ولما حاول بعض أعيان المسلمين التدخل والاحتجاج بأن هذه السياسة تنافي روح المبادئ المقطوعة ونصوصها ، أجاب كمنيس بالوعيد ، وهدد باتباع الشدة والعنف ، وعمد الى ارتكاب جريمة من أشنع الجرائم البربرية ، إذ أمر بجمع كل ما يستطاع جمعه من الكتب العربية ، ونظمت أكادسا في أكبر ساحات المدينة ، وكان منها عدد كبير من المصاحف المزخرفة وكتب الفقه والكلام ، ومنها أيضا كثير من كتب الآداب والعلوم ، وأضرمت فيها النار جميعا ، ولم يستثن منها سوى ثلاثمائة كتاب في الطب .

ثم يعلق مؤلف الكتاب في الهامش على ذلك بقوله : « يختلف المؤرخون في تقدير عدد المخطوطات العربية التي ذهبت فريسة هذه الجريمة الشائنة ، فيقدرها بعضهم بأكثر من مليون ، ولكن (كوندى) يقدرها بثمانين ألفا ، وتقديره أرجح وأقرب الى المعقول ، لأن المكتبة الأموية الشهيرة في قرطبة لم تزد على ستائة ألف مجلد ، وقد بددت هذه المجموعة الكبيرة أيام ثورات البربر واقنعاهم لقرطبة ، ولم يجتمع في غرناطة في مجموعة واحدة مثل هذا القدر ، ولكن أنشئت بها مجموعات مختلفة ما بين خاصة وطامة ، وكان طبعها أنها وهي مركز العلوم الاسلامية بعد قرطبة تحتوي على أنفس الآثار الاسلامية من حيث التفكير والفنون ، ويؤيد كوندى تقديره بقرائن وشواهد لا بأس بها ، اهـ .

وهاهو ذا أحد الشعراء الاندلسيين يبكي ماضع من ثمرات العقول والافكار الاسلامية

في الأندلس ، فيقول في قصيدة طويلة وجهها الى السلطان (بايزيد) العثماني مستعصما به مما فعله ملك الروم بالمسلمين من نقض للمعهود وقضاء أثيم على التراث الفكري للإسلام :

وخان صهودا كان قد غرنا بها ونصرتنا كرها بعنف وقسوة
وأحرق ما كانت لنا من مصاحف وخلطها بالزبل أو بالنجاسة
وكل كتاب كان من أمر ديننا ففي النار ألقوه بهزه وحقرة
ولم يتركوا فيها كتابا لمسلم ولا مصحفا يخلى به للقراءة

ونحن إذا تذكرنا أن الخطابة في بلد إسلامي مجاهد تكون وثيقة الوشائج والصلات بالناحية الدينية لأنها تشمل الوعظ والوصايا والتهذيب والدعوة الى الإصلاح الاجتماعي ، والحث على مكارم الاخلاق ، والحض على الجهاد وشن الغارات على الكافرين والمارقين ، أدركنا أن هذه الخطب كانت في مقدمة الأعداء لؤلؤا لاسبان المجرمين ، فكانوا يحرصون على إبادة وإحراقها قبل حرصهم على إحراق كتب العلوم والفنون الأخرى .

ولا معنى بعد هذا لقول الشيخ علام سلامة : (وما كان أحوج المسلمين بالأندلس الى خطباء يؤلفون القلوب ، ويستولون السخائم ، ويستنهضون الهمم ، وينفخون فيهم روح الحاسة ، اتقاء عدو كان يتحين لهم الفرص ، ويتربص بهم الدوائر ، ويسمى دائما لقسم مرا وحدتهم ، وتمزيق جماعتهم ، غير أنه لم يكن من ذلك شيء) الخ (١) .

لأن قوله : « غير أنه لم يكن من ذلك شيء » دعوى جريئة يعوزها الدليل والبرهان ، وليست من الحق في شيء ، فقد قال الأندلسيون آلاف الخطب ، وما يترجم مترجم قديم لأديب أندلسي (في الغالب) إلا أشار الى أن له (ديوان خطب) . ولعل الشيخ علام سلامة أراد أن يتساءل عما بين أيدينا من الخطب الأندلسية فنذكر عن القصد .

وفي هذا المقام نكتة خفيفة في مظهرها صميقة في معناها ومغزاها ، ولو التفت اليها مؤرخو الأدب الأندلسي لغيروا من أحكامهم على الخطابة في الأندلس ؛ فلو أنعمنا النظر فيما يرويه التاريخ من أن الأندلسيين كانوا يلقبون العلماء بالخطباء ، لأدركنا أن معنى الخطبة عندهم كان أوسع مما نتصوره اليوم ، إذ لم يكن - كما يلوح لي - يشترط عندهم في الخطبة أن تكون من فوق منبر ، تلقى على جمع حاشد في غرض خاص ، بلهجة ونبرات خاصة ، بل لعلمهم كانوا يمدون دروس العلم وأحاديث الوفود وأجوبة العلماء وكلمات الأمراء في مجالسهم الخاصة من الخطب ، وعلى هذا يصح لنا أن نعد من الخطب الأندلسية هذا النص الأدبي :

حكوا أن عبد الرحمن الداخل كان يبعث مجالسه ، فثل بين يديه رجل من جند قنصرين

يستجديه قائلا له : « يا ابن الخلائف الراشدين ، والسادة الأكرمين ، إليك فررت ، وبك عدت ، من زمن ظلم ، ودهر غشوم ، قل المال ، وكثر العيال ، وشرحت الحال ، فصير ال نذاك المال ، وأنت ولي الحمد والمجد ، المرجو للرفد » . فأجاب عبد الرحمن على الفور : « قد سمعنا مقالتك ، ونضينا حاجتك ، وأمرنا بعونك على دهرك ، على كرهنا لسوء مقالك ، فلا تعودن ولا سواك لمتة من إراقة ماء وجهك ، بتصريح المسألة واللاحاح في الطلبة ، وإذا ألم بك خطب ، أو حزبك أمر فارغمه إلينا في رقعة لا تعدوك ، كما تستر عليك - نلتك ، وتكف ثمانية العدو عنك ، بعد رفعك لها إلى مالك وما لكنا عز وجهه ، بإخلاص بالدعاء وصدق النية » .

وأن نعد منها هذا النص أيضا :

حكوا عن عبد الرحمن الداخل أنه لما فتح سرقسطة ، وتم له ما أمله من الفوز على أعدائه ، أقبل بعض خواصه يهنئونه ، فخرى بينهم أحد من لا يؤبه له من لجند فهناه بصوت عال ، فقال له الأمير : « والله لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ على فيه النعمة من هو فوق ، فأوجب على ذلك أن أنعم فيه على من هو دوني ، لأصليتك ما تعرضت له من سوء النكال . . من تكون حتى تقبل مهننا رافعا صوتك غير متلجلج ولا منهيب لمكان الامارة ولا طارف بقيمتها ، حتى كآئك تخاطب أباك أو أخاك ؟ وإن جيلك ليحملك على العود لمثلها فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة » . فقال الحندي : « ولعل فتوحات الأمير يقتدرن اتصالها باتصال جهلى وذنوبى ، فتشفع لى متى أتيت بهذه الذلة لا أعسد منها الله » . فتهلل وجه الأمير وقال : « ليس هذا باعتذار جاهل » . ثم قال : « نهونا على أنفسكم إذا لم تجدوا من ينهنا عليها » . ورفع مرتبته وزاد فى عطائه .

وأن نعد منها أيضا هذا النص :

لما اشتد الكرب بين يدي عبد الرحمن الداخل يوم حربه مع يوسف القهرى صاحب الأندلس ، ورأى شدة مقاساة أصحابه قال : « هذا اليوم هو أس ما يبنى عليه ، إما ذل الدهر ، وإما عز الدهر ، فاصبروا ساعة فيما لا تشتهون ، تريحوا بها بقية أعماركم فيما تشتهون » .

وأن نعد منها هذا النص أيضا :

لما تألب بنو حسون على القاضي أبي محمد عبد الله الوحيدى قاضى مالقة انبرى للدفاع عنه العالم الاصولى أبو عبد الله بن الفخار ، فقصد إلى حضرة الامامة (مراكش) وقام فى مجلس أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وقد غص بأربابه فقال : « إنه لمقام كريم نبدأ فيه بحمد الله على الدنو منه ، ونصلى على خيرة أنبيائه ، محمد الهادى إلى الصراط المستقيم ، وعلى آله وصحابه

نجوم الليل البهيم ؛ أما بمد ، فإننا نحمد الله الذي اصطفاك للمؤمنين أميرا ، وجعلك للدين الحنيفي نصيرا وظهيرا ، ونفزع إليك مما دهمنا في حماك ، ونبت إليك ما لحقنا من الضيم ونحن تحت ظل علاك ، وبأبي الله أن يدم من احتنى بأمر المسلمين ، ويصاب بضم من ادرع بحصنه الحصين ، شكوى قت بها بين يديك ، في حق أمرك الذي عضضه مؤيده ، لتسمع منها ما تختبره برأيك وتنقده ، وإن قاضيك ابن الوحيدى الذى قدمته فى مאלقة الاحكام ، ورضيت بدله فيمن بها من الخاصة والعوام ، لم يزل يدل على حسن اختيارك بحسن سيرته ، ويرضى الله تعالى ويرضى الناس بظاهره وسريته ، ما علمنا عليه من سوء ، ولا درينا له موقف خزى ، ولم يزل تجاريا على ما يرضى الله تعالى ويرضيك ويرضينا ، الى أن تعرضت بنو حسون للطعن فى أحكامه ، والهد من أعلامه ، ولم يعلموا أن اهتضام المقدم راجع على المقدم ، بل جبروا فى لجاجهم ، فعموا وصموا ، وفعلوا وأمضوا ما به هموا ، وإلى السحب يرفع الكف من قد جف عنه مسيل عين أو نهر ١١ . فلا سمعه بلاغة أعقبت نصره ونصر صاحبه ١ .

إن نحن سلمنا بهذا الرأى فقد حلت المشكلة أو كادت ، إذ لا نتردد فى أن نعد كل ما جاء على هذا الطراز من باب الخطب الأندلسية ، وحينئذ نجد مئات ومئات من النصوص الأدبية التى تصور لنا معالم الخطابة فى الأندلس . وتقفنا على مبلغ ما كان للأندلسيين من بديهة حاضرة ، وبلاغة قوية ، وجواب محكم . . . ١

وقد مررت الخطابة الأندلسية فى أطوار يكفى لتبيانها فى إيجاز أن نورد بشأنها كلمة للمرحوم الأستاذ محمود مصطلقى أستاذ الأدب العربى ، سابقا بكلية اللغة العربية حرسها الله معقلا للغة القرآن وأدب العرب ، قال : « ولقد تمثل فى الخطابة (بالأندلس) ما جرى على اللغة فى هذه البلاد من قوة وضعف ، وانطباع وتكلف ، وجزالة وتمسك ، فكانت على عهد الولاة الأولين بدوية جزلة ساذجة بريئة من التكلف ، تحكى أخلاق مرتجلبها من صراحة وثقة بالنفس ، ثم لانت فى القرن الرابع بلىن المدنية ، وزخرفت بالسجع المقبول الذى يعتمد على ملكة ، ويرجع الى متاراة بالمحفوظ ، وزادت على سابقتها بصورها عن فكر مذهب غذته العلوم وحنكته السياسة ، وأنصبت حوادث التاريخ ، فدفقت إشارتها وغزرت معانيها ، وفى آخر أيامها حين فترت لهم ونضاءت العناية بالعلم ، وفسدت الأذواق وضاعت الملكات ، يانت فيها نتائج ذلك كله ، فأصبحت ظاهرة التكاف ممقوتة السجع محدثة بالبديع ، محصورة الأغراض غالبا فى خطب الوعظ المرتب على أيام العام ، وخطب الأملاك المحفوظة الصيغة ، وهان أمرها فوكلت الى صغار العلماء الذين لم يستطيعوا الارتجال ، ولم يقروا على الابتداء ، فكانوا يمدون الخطب وتعد لهم ، ومن أجل ذلك ظهرت بينهم كتب الخطب كما ظهرت بالشرق ، فكان همهم فى حفظها وإلقائها

في مناسباتها ؛ وممن جمع الخطب في دواوين أبو الفضل عبد المنعم الضيائي ، والحافظ أبو الربيع الكلاعي من أهل القرن السابع .

وتستطيع أن تطالع عدداً لا بأس به من خطب الأندلسيين في كتاب « جمهرة خطب العرب » للجامعة الأستاذ أحمد زكي صفوت ؛ كما نستطيع أن نقرأ فصلاً طويلاً ممتعاً عن الخطابة في الأندلس للاستاذ عبد العزيز محمد عيسى المدرس بمعهد القاهرة في كتابه « الأدب العربي في الأندلس » . فقد خصص للحديث عنها في هذا الكتاب عشرين صفحة تحدث فيها عن دواعي الخطابة الأندلسية ومزلتها ، وأسلوبها ومميزات ، وأنواعها وألوانها ، واستشهد على ما يقول بكثير من الخطب الأندلسية الرائعة . وهذه المراجع تغنينا عن الاطالة هنا بذكر هذه الخطب والتعليق عليها ، لأننا بحاجة إلى الاتيان بكلمة عن منذر بن سعيد البلوطي زعيم الخطابة في الأندلس ١١ .

ولست في حاجة إلى أن أرد على هؤلاء الذين يقولون إن خطب الأندلسيين خالية من روح التأثير بعيدة عن مقاصد الخطابة — ومن هؤلاء الشيخ علام سلامة — فالقارىء المتوسط حينما يطالع قدراً صالحاً من الخطب الأندلسية لا يتردد في الحكم بأنها تضارع أروع ما عرف عن أسمى عصور البلاغة العربية من خطب ، وقد تفوق في بعض المواطن ، ولا ينقصها من أسباب الروعة والفننة في الخطابة شيء ، ففيها روح التأثير وقوة الحجة ، وبلاغة القول وحسن التأني ، والابداع في تخير التراكيب والأساليب والمبارات ، وجيل الاقتباس مما يحسن الاقتباس منه ؛ وفيها ما يدل على المميزات الخطابية السليمة التي كانت عند الأندلسيين ؛ وهذا حكم نستخلصه مما قرأنا من خطبهم ، وهو قدر ضئيل بالنسبة إلى ما نكاد نجزم به من صدور مقدار ضخم من الخطب الأندلسية عن أصحابها ، ولكنها لم تقع تحت أيدينا إلى اليوم ؛ فكيف بهذا الحكم لو جاء بعد الوقوف على هذا المقدار العظيم ، وهو في غالب الظن على طراز ما قرأناه للأندلسيين في هذا الميدان ١٢ .

ولكن لعل هؤلاء الناقدين قد استحضروا فتح أذهانهم عند حكمهم على الخطابة الأندلسية بخلوها من روح التأثير والبعد عن أغراض الخطابة ما أثر عن الأندلسيين من شعر لا يضارع ونثر فنى لا يبارى ، فتمنوا أن تكون خطابة الأندلسيين في مرتبة شعرهم ونثرهم الفنى رقة وعذوبة ، وخيالاً وإبداعاً . . . إن كان هو شأنهم فما أجدرنا بأن ننصح لهم بالفرقة بين ميدان وميدان ، وأن ندكرهم بأن أساليب الخطابة وطرقها تخالف في كثير أساليب الشعر والنثر الفنى وطرائقهما ، ومن الواضح جيداً أن رسالة الخطيب تغاير رسالة الشاعر الفنان ١٣ .

أحمد الشرباصي

المدرس بالأزهر

الاشعار الاندلسية

وأثرها في الشعر الاوربي

نشط العرب في أسبانيا نشاطا عظيما ونهضوا نهضة وارفة الظلال فتبلج في ربوعها أصباح الحضارة والمدنية ، وتألقت في آفاقها بدور العلوم والآداب والفنون التي نفذت أشعتها الى رحاب أوروبا فغمرت بالنعمة والنور والعرفان .

فقد انتشرت لغة الضاد بين الخاصة والعامة من الاسبانيين الذين طفقوا يتدفقون على ينابيعها العذبة ينعمون علمهم ويشفون أوامهم ويمتحنون من مناهلها بأشطان متينة خذقوا لسانها وبرعوا فيها براعة العرب أنفسهم وأجادوا حلة البلاغة ريطتها ومرباها ، وأعرضوا صفحا عن لغتهم اللاتينية ، حتى أن القسس ورجال الدين أفرعهم هذا الازورار وأفض مضاجعهم وجعلوا يصعدون شكواهم زفرات محترقة وأنفاسا مختنقة ويسرعون بترجمة الكتب الدينية الى العربية ليتاح لأبناء البلاد أن يؤدوا بها صلواتهم ويقيموا شعائر دينهم ، حتى لا يندثر كما اندثرت اللغة جاء في « تاريخ آداب العرب لنيكلسون » أن الفاروق كاهن قرطبة في أواسط القرن التاسع للميلاد كان يتميز غمضا من انصراف الاسبانيين عن لغتهم وإقبالهم على اللغة العربية وبيث شكواه قائلا : أنى يتاح لإنسان في هذه الأيام أن يقابل أحدا من أبناء جنسنا يقرأ التفاسير اللاتينية للكتب المقدسة ، ومن ذا الذي يدرس منهم فصول الانجيل وسير الانبياء والحواريين واحسرتاه ! ! إن كل الشبان المسيحيين ذوى المواهب لا يعرفون إلا العربية وإلا كتابات العرب ، فهم يقرءونها ويدرسونها بحماس بالغ متناه ، كما أنهم ينفقون المبالغ الطائلة من النقود لاقتنائها في مكاتبتهم ، وتراهم أنى وجدوا يذيعون أن تلك الآداب جديرة بالاحجاب ، فاذا تجاوزت عن ذلك وأخذت تحدثهم عن الكتب المسيحية أزور جانبهم وأجابوك باحتقار أنها أسفار لا تستحق الذكر واحسرتا عليهم ! !

لقد نسي المسيحيون لغتهم حتى ليندر العصور بين الآلاف مناهل فرد يستطيع أن يحرر الى أحد أصدقائه رسالة لاتينية على حين ترى العدد الجم قادرا على الابانة مما في نفسه بأسلوب عربي خلاب ، وعلى حين ترى خذقهم في قرض الشعر العربي قد وصل الى حد فاقوا معه العرب أنفسهم ، اهـ)

وقد نقل بعض هؤلاء الذين خذقوا العربية كثيرا من آدابها — وفي طليعتها الشعر — الى اللغة الأسبانية وتأثر الادب الأسباني بالادب العربي وتضمن بطييه ، ثم اتصلوا بالفرنسيين

والإيطاليين وغيرهم من الفرنجة وتسرب الشعر الأندلسي إلى جنوب فرنسا وإيطاليا وأثر في الشعر الغنائي وكان له الفضل في ظهور المقطوعات الشعرية المقفاة التي تحاكي الشعر العربي في أفكاره وأخيلته ، والطابع الذي أتم به الشعر الفرنجي من وصف مناظر الطبيعة وتصوير جمال الحياة لا يختلف عن طابع الشعر الأندلسي مما يشهد أن الأوربيين نهلوا من معين الشعر الأندلسي بأرضية مديدة .

يقول « لويس فياردو » في كتابه « تاريخ العرب والبربر في أسبانيا » « كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لأعن اليوناني ولأعن الروماني ، لأنهم لم يقفوا على هذا ولا ذلك قبل القرن الرابع عشر حتى يقلدوه ولقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي عن العرب ، وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسلينا وطولون مع التجار الأسبان الذين كانوا يقدون اليهما » .

ويقول البهانة « ريرا » الذي عني بدراسة التراث الإسلامي في أوروبا « إن الملاحم القشتالية احتوت ألفاظا عربية كالغارة والدليل والقاضي والمقفر والطلائع وغيرها مما ينبت أثر الأدب الأندلسي وشعره في صميم هذه الملاحم »

وجاء في خطبة للسيو « لاجير » بمؤتمر المستشرقين في مرسلينا عام ١٨٧٦ « أن العرب تركوا في الأندلس أثرا لا يزالون يذكرون به إلى الآن في العلوم والآداب والفنون ، ولقد أخذت عنهم فرنسا كثيرا من ذلك ، وقال المؤرخ الأسباني « كوند » « ان من أدب أهل أسبانيا ما هو مأخوذ من أدب العرب ومتأثر به ، ولا شك أن الأسبانيين مدينون للعرب بلغتهم وآدابهم » .

ويقول الأستاذ عبد اللطيف الطيباوي في كتابه « التصوف الإسلامي » ص ١٢٣ « إن معظم ما جاء به دانتى الشاعر الإيطالي كان قد ألفه قبله محيي الدين العربي ، وهذا الشبه لم يقف هنا بل هو شامل للصور والأمثال والاصطلاحات حتى الأساليب الفنية ، نعم قد يتفق اثنان في الفكر العام أما أن يتفقا في الفكر وفي الصورة فأمر لا تفسير له إلا بالنقل أو التقليد . وقد بين دانتى رغبته في شرح قصائد في الحب كان قد نظمها ، وبين الأسباب التي حملته على الشرح كما فعل ابن العربي حين عزم على « ترجمان الأشواق » - ترجمة يشكسون إلى الانكليزية عام ١٩٢٠ .

قال دانتى : إنه بعد موت محبوبته بيوم ذهب إلى مكان منفرد فصادفته فتاة جميلة هام بها ولم يجسر على البوح بحبه فنظمه قصائد وأشعارا ، ولما ذهب ابن العربي إلى مكة عام ١٢٠١ م هام بابنة رجل تعرف به وأخذ ينظم قصائد في حبها « اه » .



وفي مستهل القرن الثاني عشر الميلادي ظهرت في فرنسا طائفة من الشعراء المنشدين

يترنمون بأشعارهم على الأعواد تبسفو فيها الروح العربية أو طابع الشعر العربي ويلقبون « بالطوربادور » وأكبر الظن أن هذا اللقب مأخوذ من الطرب في لغة الضاد ، وكانت أناشيد هؤلاء الطوربادور تدور حول النشيد ويتجلى فيها طابع النسيب في الشعر العربي من هوى عذرى وصباة مبرحة وحب مضر ، وتشبه كل الشبه أشعار « الأصحاب » - كما يسميهم المقرئ في نفح الطيب - الذين كانوا يترنمون بها في الطرقات وأمام المنازل ويقصدون بها سراة الناس ووجوههم ، وهؤلاء الأصحاب الذين عنام « المقرئ » هم ابن قزمان وأفراد فرقته فقد كانوا ينظمون الأزجال ويعنون بها ويعزفون على الأعواد فيلتف الناس حولهم حلقات من الخاصة والعامة والعلمان والباعة وأرباب الحرف المختلفة .

وأسلوب الحياة التي كان يحياها « الطوربادور » يوائم أسلوب الحياة التي كان يحياها « الأصحاب » فقد كان كل منهما يجول في ربوع البلاد بفرقة غنائية موسيقية تنشد الأشعار الغزلية وتنتجع ساحات الوجوه والأعيان وتؤم بلاط الملوك وقصور الأمراء .

وكان أول شعراء « الطوربادور » الكونت « دي بواتيه » الفرنسي وكان معاصرا لابن قزمان ، ثم إنه اشترك في حملات كثيرة قام بها الفرنج ضد المسلمين في أسبانيا ، وكان قبل اشتراكه في هذه الحروب ينظم أشعارا لاقافية لها تختلف كل الاختلاف عن الأشعار التي نظمها على نسق الأزجال الأندلسية غب اتصاله بالعرب في الحروب التي اشترك فيها ضدهم .

وشعراء « الطوربادور » هم الذين وضعوا أسس الشعر الفرنسي وأدخلوا فيه تلك الألوان الغزلية التي نقلوها من زجل ابن قزمان وغيره ومن أشعار العرب في الأندلس .

يقول المؤرخ الإنكليزي « جورج كولان » : « إن للأندلسيين موشحات وأزجالا هي أقرب إلى أن تكون أصل أغاني « الطوربادور » التي انتشرت حتى صمت أوروبا » .

ويقول نيكلسون في كتابه (تاريخ آداب العرب) : « إن الشعر الأوربي كان قبل اتصال الأوربيين بالعرب شعرا ساذجا لا قافية له ، فلما اتصلوا بعرب الأندلس ظهرت فيه القافية ، وسائر الأشعار الأوربية على العموم كانت خالية من القافية حتى الشعر اليوناني لم تعهد فيه القافية على الرغم من ازدهاره ورقبه منذ القدم » .

ويقول المستشرق « ماكيل » : « إن أوزان الشعر الشعبي القديم في إيطاليا - كما في أناشيد جاكوبوني وفي أغاني المرافع - لا تختلف عن أوزان الشعر العربي الأندلسي » .

ويقول الكاتب الإيطالي « كيتاني » في كتابه - نصيب الإسلام في تدرج المدنية - « إن الذي كان لدانتى الشاعر الإيطالي من واسع الخيال وجمال التصوير في شعره ليس إلا أثر لما كان في قرطبة وبغداد من أدب زاهر أيام كانت أوروبا تخبط في جهالتها » .

على أن الأشعار الأوربية قبل القرن الرابع عشر عرضت لوصف السفر والرحلات ومعجائب المخلوقات ، ولم تكن أوربا في ذلك العهد رحالة ، فليس مصدر ذلك سوى الشعر العربي الأندلسي الذي حفل بذلك .

وإذا كان الأندلسيون هم الذين طبعوا أشعار « الطوربادور » بطابعهم كان من المعقول أن تؤمن بأنهم أثروا في الشعر الأوربي عامة والشعر الفرنسي بنوع خاص ، وإذا كانت الأشعار الأندلسية قد أثرت في الأشعار الأوربية هذا التأثير الكبير فأعظم هذه الأشعار تأثيراً هي الأزجال ، لأن الأشعار الأوربية التي نظمت بعد ظهور الأزجال مصنوعة على نظام شعري قوى الشبه بأزجال ابن قزمان وغيرها من الأزجال الأندلسية ؛ ومن ثم ذهب كثير من الباحثين الإسبان وغيرهم إلى أن الأزجال الأندلسية الدارجة هي أساس أشعار « الطوربادور » وما تطور عنها من ألوان الشعر في أوروبا عامة وفرنسا وإيطاليا بنوع خاص .

وجاء في تاريخ علم الأدب للغالدي « أن الشعر عند الفرنجة لم يرتق إلا بفضل عرب الأندلس ففهم أخذوا استعمال القافية عندهم ، وشعراء فرنسا أمثال موليير وفولتير وبوالو ولافوتين وراسبين وكورني لم ينهضوا إلا على أكتاف العرب فقد ساروا في صياغة شعرهم على الهج العربي سواء في مبادئه أو معانيه ، وسار « غوطا » الشاعر الألماني على هذا السياق اه



على أن كثيراً من اليهود والنصارى الأسبانيين الذين اعتنقوا الإسلام كانوا يجيدون إلى جانب العربية والأسبانية بعض اللغات الأوربية كالفرنسية والإيطالية ، وكان الأدباء منهم حلقة اتصال بين الأدب العربي والأدب الأوربي ولعبوا دوراً هاماً في نقل الأشعار الأندلسية إلى فرنسا وإيطاليا ثم ذاعت في ربوع أوروبا .

وكان كثير من الأندلسيين الذين احترقوا الغلاء بالأشعار والأزجال بعد ابن قزمان وزمرته يقصدون بلاداً غير إسلامية فينشدون ويتغنمون على الأعواد بالموشحات والأزجال ، وكان الاقبال على غنائهم وطربهم كبيراً .

ويقول الدكتور حسين مؤنس في مقال نشره بمجلة الثقافة (بتاريخ ١٩ من فبراير سنة ١٩٤٦) : « إن الأزجال شاعت في نواحي العالم الإسلامي شيوعاً عظيماً وإن أهل كل ناحية أخذوا ينشئون أزجالاً بلهجتهم العامية ، وإن هذه البدعة الفنية الأندلسية أصبحت لونا شعرياً مقرر القواعد والأصول في شتى نواحي العالم الإسلامي ، بل لم يقتصر أمرها على العالم الإسلامي وتعداه إلى العالم النصراني في شمال الأندلس وخلف البرانس ، ذلك أن الذي لازع فيه أن ما بين أيدينا من أشعار « الطوربادور » لا يكاد يختلف في معانيه وأسلوب

صياغته عن هذه الأزجال الأندلسية ، ثم يقول : ولم يكتف « الطور بادور » بذلك بل أخذوا يقلدون ما يسمعون من أشعار المسلمين وأزجالهم في كل شيء ، فهم يشكون في قلب المرأة وطبعها ويحذرون الانسان من كيدها ويزهدون في هذه الدنيا بكلام هو أقرب ما يكون إلى تفكير زهاد المسلمين من ناحية وابن قزمان من ناحية أخرى ، بل إن السكونت « دى بواتيه » نفسه يتصنع التوبة في آخر أيامه ويعتزم الزهد في الدبر كما فعل ابن قزمان إذ تاب عن شروره وعكف على الصلاة والأذان في أحد مساجد قرطبة في أواخر أيامه

والطور بادور هم آباء الأشعار الفرنسية والإيطالية والإسبانية ، فإذا كان قد ثبت على هذا المنوال أن المسلمين هم آباء شعراء الطور بادور ، فإنه يثبت لنا بهذا أن أشعارنا وأزجالنا أصل من أصول الشعر الأوربي » اهـ

* * *

ونعرض ترجمة لبعض الأشعار الأوربية يتسنى للقارئ أن يلمس فيها طابع الشعر الأندلسي ويحس روحه ويمجد لها أصولاً في أزجال الأندلسيين وموشحاتهم أيضاً ؛ وهالك الأشعار (مجلة الثقافة ١٩ فبراير عام ١٩٤٦) :

١ — « إن ما تبعته الحبيبة من الغبطة في النفوس لبشنى العليل ، وهى إذا ما غضبت على أحد فان غضبها هذا كيفيل بأن يقتل أوفر الناس صحة ، وجمالها يسلب أعقل الناس لبه ، ويفقد أجل الناس جماله ، ويستطيع أن يحيل أعظم الناس أدبا شريراً ذمياً ، ويحمل من الشرير إنساناً مهذباً »

٢ — « عند ما يأخذ النهار في الطول وقت الربيع أجد في نفسي لغناء الطير وقمماً جميلاً ، فإذا انقطع عني هذا الغناء تحسست في أعماق نفسي آثار حب بعيد فتجدني إذ ذاك غارقاً في الفكر حزينا خافض الرأس ، وهنا لا أجد في نفسي لغناء الطير لذة ولا للزهر فتنة »

٣ — « ليس بغريب أن يكون غنائى أجل من فناء أى إنسان غبرى ، لأننى أشد الناس خضوعاً للحب وانقياداً لأمره ، فان قلبي وجسمي وفهمي وجاهي وقوتي كلها رهنتها بأمره . . . »

وبعد : فقد غزا العرب جانباً من أوربا غزواً ، ليس كغزو الغرب للشرق ، وإنما هو غزو قوامه نشر الحضارة وغرس بذور العرفان ورفع ألوية الأدب وإنقاذ شعب أوربي من براثن الجهالة والارهاق ليحيى حياة يغمرها النور والحرية والمعرفة ، فهل يعيد التاريخ نفسه ؟

سليمان الدغالي

مدرس في الأزهر

علوم القرآن

أسماء القرآن

ليس المراد بأسماء القرآن الأعلام الواردة في القرآن ، فإن هذا موضوع مستقل بنفسه يحتاج الى كثير من البحث والتنقيب ، وإنما المراد بأسماء القرآن الاسماء التي يسمي بها القرآن ، وقد ذكر صاحب كتاب البرهان أن الله سمى القرآن بخمسة وخمسين اسما ، وكلها واردة في القرآن الكريم : سماه كتابا ومبيناً ، قال تعالى « حم والكتاب المبين » . أما تسميته كتابا فلجميعه أنواع العلوم والقصص والأخبار على أبلغ وجه ، ومعلوم أن الكتاب في اللغة الجمع ؛ وأما تسميته مبيناً فلأنه أبان الحق من الباطل .

قال الجاحظ : سمى الله كتابه اسما مخالفا لما سمى العرب كلامهم جملة وتفصيلا ، فسمى جلته « قرآنا » وسموا « ديوانا » ، وسمى بعضه سورة ، وسموا فصيدة ، وسمى بعض السورة آية ، وسموا بيتا ، وسمى آخر الآية فاصلة وسموا قافية .

وسماه قرآنا وكريما ، قال تعالى : « إنه لقرآن كريم » أما القرآن فاختلف فيه ، فقال جماعة : هو اسم غير مشتق خاص بكلام الله تعالى فهو غير مهموز ، وبه فرأى ابن كثير ، وهو سروي عن الشافعي رضي الله عنه ، فقد أخرج البيهقي والخطيب وغيرها عنه أنه كان يهز قراءة ، ولا يهز قرآن ، ويقول : القرآن اسم وليس بمهموز ولم يؤخذ من قراءة ولكنه اسم لكتاب الله مثل التوراة والإنجيل . وقال آخرون إنه مشتق ، فيقول الأشعرى إنه من قرنت الشيء بالشيء إذا ضمنت أحدهما الى الآخر ، وسمى به لنعم السور والآيات والحروف فيه .

ويقول العز : هو مشتق من القرائن لأن الآيات يصدق بعضها بعضها ويشابه بعضها بعضها وهي قرائن . وعلى الرأيين هو بلا همز أيضا ونونه أصلية .

ويقول الزجاج : الصحيح أن ترك الهمز فيه من باب التخفيف ونقل حركة الهمزة الى الساكن الصحيح قبلها .

والفائلون بأنه مهموز اختلفوا ، فيقول اللحياني : هو مصدر لقراءت كالرجحان والغفران ، سمى به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر . ويقول الزجاج : هو وصف على فعلان مشتق من القراء بمعنى الجمع ، ومنه قرأت الماء في الحوض أي جمعته ، وسمى بذلك لأنه جمع السور بعضها الى بعض .

ويقول الراغب : لا يقال لكل جمع قرآن ، ولا يقال لجمع كل كلام قرآن ، وإنما يسمى قرآنا لأنه جمع ثمرات الكتب السالفة المنزلة ، أو لأنه جمع أنواع العلوم كلها .

ويسمى كلاما ونورا ، قال تعالى « حتى يسمع كلام الله » وقال تعالى : « وأنزلنا اليكم نورا » .

أما وجه تسميته كلاما فواضح ، وأما تسميته نورا فلا أنه يدرك به غوامض الحلال والحرام .
ويسمى هدى ورحمة ، قال تعالى « هدى ورحمة للمؤمنين » وسمى هدى لأن فيه الدلالة على الحق ، وهو من باب إطلاق المصدر على الفاعل مبالغة .

ويسمى فرقانا وشفاء ، قال تعالى : « نزل الفرقان على عبده » وقال تعالى : « ونزل من القرآن ما هو شفاء » أما الفرقان فلا أنه فرق بين الحق والباطل ، وأما الشفاء فلا أنه يشفي من الأمراض القلبية كالكفر والجهل والغل .

ويسمى موعظة وذكرى ومباركا ، قال تعالى : « قد جاءكم موعظة من ربكم » وقال تعالى : « وهذا ذكر مبارك أنزلناه » وسمى ذكرا لما فيه من الموعظة وأخبار الأمم الماضية ، أو لأنه بالغ أعلى درجات الشرف ، قال تعالى : « وإنه تذكرك لك ولقومك » أى شرف لأنه بلغتهم .

ويسمى عليا وحكمة وحكيما ، قال تعالى « وإنه فى أم الكتاب لدينا لعلى » وقال تعالى : « حكمة بالغة » وقال تعالى « تلك آيات الكتاب الحكيم » . سماه عليا لرفعة شأنه فى الكتب لكونه معجزا من بينها . وأما أنه حكمة فلا أنه نزل على القانون المعبر من وضع كل شيء فى محله ، أو لأنه مشتمل على الحكمة يعنى العلم النافع . وأما أنه حكيم فلا أنه أحكمت آياته بمجيب النظم وبديع المعانى . وأحكمت عن أن يشترك إليها التبديل والتحريف والاختلاف والتباين ، قال تعالى « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

ويسمى مهيمنا وحبلًا وصراطا مستقيما ، قال تعالى « مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه » وقال تعالى « واعتصموا بحبل الله جميعا » وقال تعالى « وأن هذا صراطى مستقيما » أما المهيمن فلا أنه شاهد على جميع الكتب والأمم السابقة ، وأما الحبل فلا أن من تمسك به وصل الى سمادة الدارين ، وأما الصراط المستقيم فلا أنه طريق الى الجنة قويم لا عوج فيه .

ويسمى أحسن الحديث ومثانى ومتشاهبا ، قال تعالى : « الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى » .

أما التشابه : فلا أنه يشبه بعضه بمضا فى الحسن والإعجاز . وأما المثانى فلا أنه فيه بيان قصص الأمم الماضية فهو ثان لما تقدمه ، وقيل لأنه نزل مرة بالمعنى ومرة باللفظ والمعنى

كما حكا الكرماني في عجائبه ، واستدل بقوله تعالى « إن هذا لفي الصحف الأولى ، صحف إبراهيم وموسى » .

وسمى تنزيلا وروحا ووحيا ، قال تعالى « وإنه لتنزيل رب العالمين » وقال تعالى « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا » وقال تعالى « قل إنما أنذركم بالوحي » .

وسمى عربيا وبصائر وبيانا ، قال تعالى « قرآنا عربيا » و « هذا بصائر » و « هذا بيان للناس » .

وسمى علما وحقا وهاديا ، قال تعالى « من بعد ما جاءك من العلم » و « إن هذا هو القصص الحق » و « إن هذا القرآن يهدي للتي أقوم » .

وسمى عجا و تذكرة وصدقا ، قال تعالى « قرآنا عجبا » « وإنه لتذكرة للمتقين » « والذي جاء بالصدق » .

وسمى عدلا وأمرأ ومناديا ، قال تعالى « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا » و ذلك أمر الله أنزله إليكم » و « سمعنا مناديا ينادي للإيمان » .

وسمى مجيدا وزبوراً ونذيراً ، قال تعالى « بل هو قرآن مجيد » « ولقد كتبنا في الزبور » و « لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً » .

وسمى عزيزاً وبلاغاً ، قال تعالى « هذا بلاغ للناس » « وإنه لكتاب عزيز » .

وسماه أربعة أسماء في آية واحدة « في صحف مكرمة ، مرفوعة مطهرة » .

ونقل عن أبي الحسن الرماني ، وقد سئل : إن لكل كتاب ترجمة ، فما ترجمة القرآن ؟ فقال : « هذا بلاغ للناس » .

وفي تاريخ المظفرى أنه لما جمع أبو بكر القرآن قال : سموه ، فقال بعضهم : سموه إنجيلا ، فكرهوه ، وقال بعضهم : سموه السّفر ، فكرهوه ، فقال ابن مسعود : رأيت بالحبيشة كتابا يسمونه « المصحف » فسموه به . وفي كتاب المصاحف فيل ابن أشته ما يوافق هذا .

وأخرج ابن أبي حاتم عن قتادة قال : لما أخذ موسى الألواح قال : يارب إني أجد في الألواح أمة أناجيلهم في قلوبهم فاجعلهم أمتي ، قال : تلك أمة محمد . ففي هذا الأثر ما يفيد جواز تسمية القرآن إنجيلا .

قال السيوطي : لا يجوز أن يطلق عليه ذلك ، وإنما هذا كما سميت التوراة فرقانا في قوله تعالى « وإذ آتينا موسى الكتاب والفرقان » . وكما سمي النبي صلى الله عليه وسلم الزبور قرآنا في قوله : « خفف على داود القرآن » والله أعلم ؟

مسى مسين

مدرس في معهد طنطا الثانوى

أبوذر الغفاري^(١)

في فترات من الزمن تنهياً أسباب العظمة (٢) لرجل من الرجال فيبدو مبرزاً بين أهل زمانه ، وتفرض شخصيته عن جدارة وتحتل سمعته مكاناً كبيراً بينهم ، وكثيراً بل غالباً وإن شئت فقل دائماً ما يضطهد هذا العظيم من حكام عصره ومن جبهة الجهلاء المنافقين الذين لا هم لهم إلا أن يعيشوا على هامش الحياة وتحول فترات مواعيد أصحاب السلطان يكيلون لهم المدح في غير ترو ويضمون عليهم صفات العظمة والفخار ويلبسونهم حُلل المجد الزائفة . ولكن الدهر القاسي ذا العينين المفتوحتين لا يخدعه ذلك النفاق ولا يفره ذلك الرياء ، فسرعان ما تزول الأبهة ولو بعد حين ويؤول معها أنصاف الرجال وإمعات العصر وتبقى كلمة الحق ساطعة ، وإن لم يدركها رجال العصر الذين أحاطوا بقائلها فلا بد أن يدركها رجال العصور التي تليه ويمجدوها ويخلدوا صاحبها ويضعوه في مكانه اللائق به بين عظماء الزمان ، وتسير سيرته في الأجيال منارا يهتدى به ، وعلماً يخفق ، ومثلاً رائماً يشجع على قول الحق وإن أغضب الكثيرين .

ولقد ظهر في العصر الإسلامي يوم أن كانت الكلمة العليا في أنحاء المعمورة للمسلمين نصيب من هؤلاء العظماء إذا استعرضناهم بين خطرات الفكر فسرعان ما تبرز بينها شخصية فذة حفلت بآثارها كتب الفقه والدين ، وصحابي جليل سمع بدعوة الرسول فامتثل بها قلبه فهجر بلده ليكون بقرب صاحب الدعوة حتى يعرفها على حقيقتها . عرف الدين الإسلامي وأخلص له وارثي من مناهله العذبة ومنابعه الأصيلة ، للملازمة الدائمة لرسوله الكريم ، وأضحى بعد وفاة الرسول أكبر مرجع لتفسير القرآن ورواية الأحاديث الصحيحة ، لم يهر عينيه لآلاء الذهب ولا أبهة الغنى فطلق الدنيا وعاش مخلصاً لأحكام الدين ينقذها بكل دقة ويهتدى في ذلك بسيرة الرسول ، وكم وقف مناضلاً في سبيل تنفيذ تعاليم الإسلام فلقى في ذلك ما يلقي المجاهدون المثاليون الذين لا هم لهم إلا أن يروا المبادئ الكريمة سائدة في عصرهم والمدالة الاجتماعية مرفرفة فوق ربوعها . تلك هي شخصية أبي ذر الغفاري الذي كثيراً ما اصطدم بالحكام الذين يميلون مع الهوى ويعشقون الظهور في جلال الحكم وسيطرة القوة ، فكان له معهم نقاش احتدم أحياناً إلى درجة النضال وتآليب الجماهير عليه ودعوتهم إلى مكافحته .

يحدثنا الطبري في تاريخه أن « أبا ذر وابن عباس كلاًهما يقول : لقد رأيتني ربع الإسلام

(١) من كتاب تحت الطبع (٢) لنا رأى خاص في تفسير « العظمة » فهي عندنا القدرة على قول الحق وعدم اللبالة بأي كبير في سبيله .

ولم يسلم قبلي إلا النبي وأبو بكر وبلال كلاهما لا بدري متى أسلم الآخر « (١) » قال الواقدي : أسلم معه خالد ابن سميد بن العاص خامسا ، وأسلم أبو ذر قالوا رابعا أو خامسا ، وأسلم عمرو بن عبسة السلمي فيقال رابعا وخامسا « (٢) »

ولقد بلغ من تقدير الفاروق عمر بن الخطاب له أن « ألحق (عمر) بأهل بدر أربعة من غير أهلها الحسن والحسين وأبا ذر وسلمان » (٣) ولا غرو في ذلك فقد ذكر الطبري أيضا في تاريخه نصا عن اسماعيل بن موسى السدي أنه قال « أخبرني شريك عن أبي ربيعة الأيادي عن ابن بريدة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى أمرني بحب أربعة ، قيل يا رسول الله من ؟ منهم لنا . فقال علي منهم ، يقول ذلك ثلاثا ، وأبو ذر والمقداد وسلمان ، أمرني بحبهم وأخبرني أنه يحبهم » (٤) » لقد أحب الرسول أبا ذر لأنه كان من أعلام المخلصين للدعوة ، بذل في سبيلها كل ما آتاه الله من فصاحة وحجة وبيان ، وأحبه بعمده كل خليفة ؛ لم يمل مع الهوى ، ولم يضق به إلا كل خليفة أو حاكم مال جانبا عن الحق ولم يراع الدقة في تنفيذ أحكام القرآن والسيرة النبوية . ولقد بلغ بهم الضيق منه أن عدوه تأثرا ضد النظام العام وأمروا بنفيه إلى الربذة ، وما كان هذا ليبي من عزيمة المجاهدين الأحرار وخاصة أبا ذر الذي بلغ به التقديس للحق حد مخاصمة من صانع السلطان ولو مرة واحدة ، فلقد ذكر الطبري أن ابن سعد روى عن أبي بريدة قال : لما قدم أبو موسى الأشعري لقي أبا ذر فجعل أبو موسى يلزمه ، وكان الأشعري رجلا خفيف اللحم قصيرا ، وكان أبو ذر رجلا أسود كثير الشعر فجعل الأشعري يلزمه ويقول أبو ذر : إليك عني ، ويقول الأشعري : مرحبا يا أخي ، ويدفعه أبو ذر ويقول لست بأخيك إنما كنت أخاك قبل أن تستعمل ، قال ثم لقي أبا هريرة فالتزمه فقال مرحبا يا أخي ، فقال له أبو ذر إليك عني هل كنت عملت لهؤلاء ؟ قال هل تطاولت في البنيان أو اتخذت زرعاً أو ماشية ؟ قال لا ، قال أنت أخي « (٥) » .

هذه نتف من حياة الرجل العظيم أبي ذر الغفاري ، عرف الحق وأخلص له ولم يتوان لحظة عن تنوير الناس وإرشادهم إلى حقوقهم في الحياة ، فعنه تأثرا ونفى بالربذة ؛ روى ابن سعد : عن الأحنف بن قيس قال : رأيت أبا ذر رجلا طويلا آدم أبيض الرأس واللحية ، قال أبو جعفر : وتوفي أبو ذر في خلافة عثمان بالربذة « (٦) » .

مات الرجل الحر بعد أن ظل حياته علما لثورة العدل ، تاركا وراءه سيرة من أعظم السير ؛ سيرة رجل وهب حياته للحق ، ونافح في سبيل الحق ، ومات في الحق ما ؟

(١) تاريخ الطبري مجلد أول جزء ثالث ص ١١٦٦ . (٢) تاديج الطبري مجلد أول جزء ثالث ص ١١٦٨ .

(٣) « » مجلد ثان جزء أول ص ٢٤١٣ . (٤) « » مجلد ثالث جزء رابع ص ٢٣٧١ .

(٥) تاريخ الطبري مجلد ثالث جزء رابع ص ٢٣٤٨ (٦) مجلد ثالث جزء رابع ص ٢٣٤٨ .

عرض لكتاب الأستاذ الامام الشيخ

« محمد عبده »

تأليف فضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق

شيخ الجامع الأزهر

اشتمل هذا الكتاب على سبع محاضرات ألقاها حضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ مصطفى عبد الرزاق شيخ الجامع الأزهر في جامعة الشعب في مطلع عام ١٩١٩ ترجم فيها سيرة ذلك العالم المصلح العظيم ، وصور فيها خلقه ومذاهبه الإصلاحية ومعارفه الواسعة ، وعنى المؤلف الكبير بسرد العوامل التي كونت ذلك الإمام وأثرت في نموه وتطوره والبيئة التي نشأ بها وكيفت تربيته ، فأبدع في تصوير كل ذلك إلى درجة ملحوظة . وقد اتبع أسلوب المستشرقين في البحث والتدقيق ولم يقصر بحثه على المترجم وحده ، وإنما صور كل البيئات التي تعلم فيها أو أثرت في نفسه ، فصور بلدته التي نشأ فيها ، والمعلمين الذين درس عليهم وتأثيرهم فيه ، وصور معهد طنطا والجامع الأزهر في عصر المترجم الجليل وقبله وبعده إلى عصرنا هذا تقريبا ، كل ذلك بدقة مدهشة .

قال المؤلف حفظه الله : وقد جعلنا سيرة الأستاذ قسمين : القسم الأول يتناول ما بين ولادته إلى أن عرف له بيان مكتوب يعرب عن أفسكاره وعيوبه . . . والقسم الثاني من سيرة إمامنا الكبير يتضمن حياته المثمرة من يوم أن نشر على الناس آراءه إلى أن طواه الموت رحمة الله عليه . ونعتمد في ذلك على مقالاته ومؤلفاته ودروسه ، وما كتبه عنه معاصروه ورواه معاصروه ، وما قد يكون لى من خبرة شخصية أيام كنت من طلبة الأستاذ وتحت رعايته وإرشاده .

ويظهر للقارى كل ذلك جلياً في خلال سطور الكتاب ، مما دل على بقلطة مدهشة ، وعين لا تفتر عن رسم ما أمامها ، وإحاطة تامة بكل جليل ودقيق . ولقد أتى المؤلف بالشئ المعجب والبحث الطريف والنقد العفيف ، كل ذلك بأسلوب هو البلاغة مع الابهجاز ، فكل كلامه حكمة أو تصوير للعصر الذى عاشه الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده ولأساتذته وإخوانه ، والمؤلف يناقش كل ذلك مناقشة العالم والمنكر والفيلسوف ، إذ هو أستاذ في كل ذلك ، وله ذهن يقظ وعين مفتحة وأسلوب يفصله على قدر ما يشاء من القول والحكم . فهو يرسم للقارى تاريخ

شيخه بقلم شيخه وبأقلام الذي ترجموا له ، ثم هو يناقش ذلك ، وله لمحات موفقة في صفحات الكتاب . ومن أبداع ما لاحظته المؤلف المفضل قوله :

« ولا ينكر أثر الشيخ درويش بتربيته الصوفية في نفس أستاذنا ، فإن ذلك الشيخ الصوفي وجه كل عواطف الشباب في نفس الفتى الى اللذائذ القدسية لذات العارفين .

« وعندي أن قراءته القرآن وحده حفظته من العيوب الكثيرة للتعليم في الكتاتيب . سلم الأستاذ في مدة تعلمه الاولى من التشويش الضار بعقله وبنيته ، ومن القسوة التي تحمد زمامه الى الحرية والنشاط .

« على أنه يظهر لمن رأى خط الامام الكبير ، وهو لطيف من غير أن يكون جميلاً ، وشهد سرعة يده في الكتابة ، أن معلمه الاول كان على شيء من النظام والمهارة . »

فهذه اللمحات دلتنا على عمق دراسة الأستاذ الاكبر منذ نشأته ، فهو يستلج من شخص شيخه ونظام تعلمه ما كان عليه أساتذته ومعاشره . ولقد ناقش المؤلف مسألة خصام الأستاذ الامام مع الشيخ عليش ورجح أن الشيخ عليش نال الأستاذ الامام بالاذى اليدوي ، وذلك قياساً على حالة علماء الأزهر في ذلك العصر الى أيام دراسة المؤلف في الأزهر ، وذلك في مطلع فصل كتبه عن نضوجه العلمي ودعوته الى الإصلاح ابتداء من صفحة ٦٤ وما بعدها ، ودفع عن الأستاذ الامام وضعه العصا بجانبه استمداً للشيخ عليش قائلاً : إن أدبه أرفع من ذلك .

وبتين تأثير السيد جمال الدين الافغانى بتلميذه الشيخ محمد عبده ، وتأثير الشيخ الطويل وغيرها فيه ، مما عجل نضوجه علمياً وأديباً ، ومما جعل ثقافته عامة شاملة . وقد أجل المؤلف كيفية دراسة الأستاذ الامام للعلوم الأزهرية بقوله : « وقد كان الشيخ حسن الطويل والشيخ محمد البسيوني من أساتذة الشيخ محمد عبده ، فكان متصلاً بالحركة الصوفية المخلوطة بالفلسفة ، وكان متصلاً بالحركة الأدبية . على أنه لم يبعد كل البعد عن المحافظين على القديم ، فحضر دروس زعمائهم المشهورين بالعلم كـ الشيخ عليش والشيخ الرفاعي والشيخ الجبزاوي والشيخ البحراوي والشيخ الرفاعي والشيخ الطرابلسي .

« كان الطالب محمد عبده ممن يشار إليهم بالبنان في الأزهر ذكاء واجتهاداً وزهداً ، كما يشهد به كثيرون ممن حضروه مجاوراً .

« تلقى الشيخ محمد عبده العلوم عن صفوة علماء عصره على الطريقة الأزهرية التي تصبغ العلوم بصبغة دينية تجعلها قواعد مقررة كل حمل العقل فيها أن يحفظها ويحفظ أدلتها المقررة أيضاً أو يحفظ شواهداها ... »

ويطول بنا الأمر وتنسجم أماننا الرقعة إذا شئنا مسaire المؤلف الجليل في سرد محاسن كلامه وملاحظاته . وحسبنا أن نقول إن المحاضرات السبع على صغر حجمها حملها صاحبها أنضج ما تحمل به الصفحات في تسلسل تاريخ مصر سياسيا وعلميا وعسكريا وفكريا في الحقبة التي عاش فيها الامام الشيخ محمد عبده . وإذا علمنا أن المحاضرات وضعت سنة ١٩١٩ لوقت خاص ولدراسة خاصة ولناشئة ذلك الوقت ، وأن المؤلف حفظه الله لم يقصر بحوثه في سيرة الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده على محاضراته هذه ، وإنما أذاع بعدها من محطة الإذاعة ، وخطب في الجامعة المصرية القديمة ، وكتب في الصحف والمجلات بمناسبات كثيرة في سيرة الأستاذ الامام مما يتألف منه كتب وإبيجة وبحوث مستفيضة في نواح شتى من سيرة الأستاذ الامام محمد عبده ، إذا علمنا هذا أيقنا شدة الوفاء التي نشأ عليها فضيلة التلميذ الشيخ مصطفى عبد الرزاق ، فقد نشأ على حب شيخه منذ حداثة . ولقد جاء في الجزء الخامس عشر من المجلد السادس من مجلة المنار الصادر بتاريخ غرة شعبان سنة ١٣٢١ الموافق ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٠٣ تحت عنوان « شذرة — باب الآثار الأدبية » ما يلي :

« لما قدم الأستاذ الامام من سياحة هذا العام هنأه بالقصائد الطنانة جواهر العلماء والأدباء في الأزهر وغيره ، وتذكر هذه الأبيات للشاب الذي زاحم في بدايته أهل النهاية تنشيطا له على العناية بالأدب ، وهو الشيخ مصطفى نجح حسن بك عبد الرزاق ، قال :

أقبل عليك تحية وسلام يا ساهراً والمسلمون نيام
تطوى البلاد وحيث جئت لامة نشرت لفضلك بينهم أعلام
كالبدور أنى سار يشرق نوره والحق أنى حل فهو إمام
إن يقدروا في الغرب علمك قدره فلمصر أولى منهم والشام
فيك الرجاء لامة لعبت بما يلهى الصغار وجئت الأيام
لازلت غيظا للضلال وأهله والله يرضى عنك والاسلام

ولقد تكلم المؤلف حفظه الله عن سيرة الأستاذ الامام وهو طالب ، فبين جده واجتهاده وحبه لوطنه ، وتكلم عنه صحافيا ومصلحا (ص ١١٦ ، ١١٨ ، ١١٩) وكيف اضطر لتقييد الحرية في الكتابة محافظة على الدين ، وحظه في الثورة العربية (ص ١٢٥ ، ١٢٩) ووصف علمه في سطور قائلة (ص ٦٤ — ٧٥) ، وتكلم عن اسماعيل باشا والتصرف في الأزهر والتعليم النظامي ونشأته (ص ٤٢ — ٤٨) .

ومن بديع ما عني به وصف نشأة الأستاذ الامام وفروسيته وتأثير أبيه وأمه فيه ؛ ومن بديع ما قاله حفظه الله : « نشأ الشيخ محمد عبده كما نشأ نحن الفلاحين حفاة طارى

الرءوس ، تجري في الأزقة ، ونسبح في البرك والسترع ، ونلعب بالتراب والاحجار ، لا يعنى أحد بتلقيفنا في طفولتنا شيئاً من مبادئ الفهم والذوق ولسكننا نبت كالنبات البرى يتغذى مما يصل إليه من مواد الغذاء ويشمر شوكة وأزهاره ولا يربى في أنفسنا إلا الشعور بنهب الوالدين وإجلالها واحتذاء مثالها »

ونقل كلاماً للاستاذ الامام عن هيبة والده وأمه ، ومما جاء فيه قوله :

« وبالجملة كنت أعتقد أن والدى أعظم رجل في القرية وكل من فيها دوته ، وهو بذلك أعظم رجل في الدنيا ، فإن الدنيا عندي لم تكن أوسع من محلة نصر .

« أما والدى فكانت منزلتها بين نساء القرية لا تنزل عن مكانة والدى ، فكانت ترحم المساكين وتعطف على الضعفاء ، وتعد ذلك مجداً ، وطاعة لله وحمداً . »

ففي كلام المؤلف - حفظه الله - درس رجالنا ونسائنا وللنابذة المتعلمة في وجوب الالتفات الى تنظيم حياة الاسر وتهذيبها وهدايتها وعدم ترك الاولاد يفتنون نباتاً شيطانياً ، فحسبنا إهمالاً والناس من حولنا يجدون ويعملون ويربون أولادهم على أحسن طراز وأنفع أسلوب . ويجب أن نقول إن ناشر هذا الكتاب هو تلميذ صاحبه الاستاذ محمد عثمان نجاشى ، وقد عنيت بطبعه دار المعارف بمصر عناية فائقة وطبعته على ورق جيد ويقع فى ١٣٢ صفحة من القطع المتوسط وجعلت ثمنه ٢٠ قرشاً .

والجامعة الشعبية التى أقيمت فيها المحاضرات هى جامعة أنشأها الكونت ده بروزر مندوب روسيا فى صندوق الدين إذ ذاك بالاشتراك مع بعض فضلاء مصر لتكثرون مثابة للذين تعوقهم أعمالهم عن متابعة دراساتهم العالية فى أثناء النهار ، وكان قصد فضيلة الاستاذ الأكبر من محاضراته تعريف الناشئة بمنزلة الاستاذ الامام وتأثيره فى النهضة العلمية والسياسية والأدبية الحديثة . فكان له ما أراد ، وتطلعت بعد ذلك الكتابة عن فضل الامام رحمه الله ، وأسهب فى ذلك علماء مصر والغرب وجملة الأقلام من الغربيين . بل إن فضيلة الاستاذ الأكبر تابع كتابته هذه بفصول كثيرة عن أستاذ ، ولكن هذه المحاضرة كانت القبس الأول ، وكانت محفوظة فى أدراج مؤلفها حتى نشرها تلميذه فأحسن صنعا بإصدارها واستحق شكر العارفين المقدرين .

محى الربيع رضا

مذكرة حول التعليم الديني بمدارس مصر

بسم الله الرحمن الرحيم

حضرة صاحب العزة رئيس تحرير مجلة الأزهر الغراء .

السلام عليكم ورحمة الله . وبعد : فإن جبهة علماء الأزهر ترفع الى مقامكم أليق تحية وتستقبل بالحمد ذللك الشعور النبيل الذي جعل وزارة المعارف تحسب الخطوة الأولى الى تحقيق هذه الأمنية العزيزة ، أمنية تعميم تعليم الدين الاسلامي في جميع مراحل التعليم بمدارس مصر . ويسرنا أن تحيطوا علما بأننا اطلعنا على تقرير اللجنة التي ألفتها الوزارة المذكورة لهذا الغرض الجليل فألفيناه تقريراً قيميا جديراً بالانظار ، بيد أنه خلا من التنصيص على رغبات ثلاث لا نرى نحن بدا من التنويه بها رجاء العمل على تحقيقها حتى يؤتى التعليم الديني ثماره المرجوة منه في النهوض بالامة العزيزة .

الأولى : أن يقرر التعليم الديني على أنه مادة أساسية ذات شأن وترتبط به نتيجة الطالب والطالبة ، وأن تفرض لنهايته الصغرى في النجاح درجة تشعر بالتلميذ خطورة هذه المادة مثل سائر العلوم الأساسية . وتلك الرغبة في نظره هي أهم الرغبات لأنه ثبت بالتجارب الطويلة أن الطلاب لا يعيرون المواد الإضافية أهمية ، ولا يلتفتون إليها إلا بمقدار ما فيها من لهُو أو متعة كالألعاب الرياضية ، فالخطوة الأولى إذن هي أن ندفع التلميذ دفعا الى أن ينهل من مناهل الاسلام . والوسيلة الوحيدة الى ذلك هي أن تفرض ما دته عليه فرضا يقرّب عليه نجاحه أو رسوبه ، وإلا فكيف يهتم التلميذ بمادة يعتقد أنها في نظره ليست ذات أهمية ، ولا تشعره المدرسة نحوها بمسئولية ؟ وهل ترضى هذا الوضع الجارح للكرامة ووزارة مصرية في أمة كريمة تتزعم الامة الاسلامية ، ودينها الرسمي هو الاسلام ، ودين جلالة ملكها الصالح هو الاسلام ، وفيها الأزهر الشريف قبلة الأنظار كلها في علوم الاسلام .

وإن وجود تلاميذ غير مسلمين لا يكون مانعا من جعل الدين الاسلامي مادة أساسية ، حيث إنه يمكن جعل هذه المادة معتبرة في نجاح التلاميذ المسلمين ، لا في الترتيب بينهم وبين غيرهم ، وذلك نوحيا للمعادلة بقدر الامكان .

الثانية : نص التقرير على أن يكون تعليم الدين نظريا وحمليا ، وإنا نشكر للجنة هذه العناية

بأمر الدين ، إلا أننا نرى تحقيقاً لهذه الرغبة فرض عقوبة على كل من يتهاون في شأن أمر من أمور الدين كالتبرج للتلميذات والمعلمات ، وكترك الصلاة ، والفطر في رمضان .

الثالثة : نكرر شكرنا على أمر آخر اهتمت به اللجنة وهو تقريرها أن تتسع أبواب التعليم الديني لكل ما يحتاج إليه التلميذ والتلميذة في العقيدة والخلق والعبادة والحياة العملية ، إلا أننا نوصي في هذه المناسبة بأن يكون في كتاب الديانة باب لعلاج الشبهات الشائعة التي تطرأ على التلاميذ والتلميذات ، وباب ثان لبيان البدع والخرافات التي يتوهمون أنها من الاسلام والاسلام يرى منها ، وباب ثالث لدراسة تاريخ عظماء الاسلام وعظيماة ، حتى ينشأ الناشئ معتزلاً بأمجاده معتداً بتاريخه ، ولا يجوز الابقاء على ما نراه من قصر العناية على دراسة مشاهير الغرب وشهيراتهم ، لأن ذلك يفقد الطالب المسلم روح الاعتزاز بدينه وأبطال ملته ، ويريه تربية مذبذبة لا شرقية ولا غربية ، وتكون النتيجة أن تخسر الأمة شبابها في الوقت الذي تعمل فيه كل دولة على إعداد شباب ناهض يضطلع بأعباء المسئوليات الخاصة والعامة ويسعف بلاده إذا ما جد الجدد وما الواجب الى الكشف والنضال .

هذه رغباتنا نتوجه بها الى مقامكم الكريم راجين أن تحلوها محل العناية والتنفيذ ، ولا إنكون مغالين إذا قررنا أن تلك الرغبات هي رغبات الأمة جمعاء . « ولينصرن الله من ينصره ، إن الله لقوى عزيز » . والسلام عليكم ورحمة الله .

جبهة علماء الأزهر

الرئيس

الأمين العام

محمد الشرييني

محمد عبد العظيم الزرقاني

عضو جماعة كبار العلماء

مدرس بكلية أصول الدين

مدرس بكلية أصول الدين

العدالة في الاسلام

عبدالله عمر :

قبل أن يلتقى أبو بكر ربه ، أوصى بالخلافة بعده لعمر بن الخطاب ، رضوان الله عليهما ؛ وفضلا عن أن هذا الاختيار كان موقفا كل التوفيق ، وقابله المسلمون أجمع بالارتياح التام ، فلقد كشف بوضوح عن حزم المستدين ، وبعد نظره ، وحسن سياسته ، وعظيم تدبيره ، وبصره بشؤون الملك وأمور الرعية .

فقد كان عمر بن الخطاب ، رضى الله تعالى عنه ، تقيا ، عادلا ، زاهدا ، متواضعا ، شجاعا قويا ، وسياسيا مدبرا ، وهو - رضوان الله عليه - أول من فتح الفتوح ، ودون الدواوين ، ومصر الأمصار ، وأقطع الأجناد ، ورتب الناس في المطاء على حسب منازلهم ، وقربهم من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

أما سياسته وتدبيره ، ومهارته وحزمه ، فحسبك أن تقرأ ما كتبه بعد توليته الخلافة لسعد بن أبي وقاص ومن معه من الأجناد ، وفيه يقول :

« أما بعد : فأني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال ؛ فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المسكيدة في الحرب ؛ وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصي منكم من عدوكم ؛ فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ؛ وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ؛ لأن عدونا ليس كمعدوم ، ولا عدتنا كعدتهم ؛ فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة ؛ وإن لم ننصر عليهم بفضلنا لم تغلبهم بقوتنا .

« واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله ، يعلمون ما تفعلون ؛ فاستحيوا منهم ، ولا تعملوا بمعاصي الله وأتم في سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا ، فرب قوم سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بني إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفار الجوس ، فجاسوا خلال الديار ، وكان وعداً مفعولا .

« واسألوا الله العون على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم ؛ أسأل الله لنا ولكم ذلك ؛ وترفق بالمسلمين في سيرهم ، ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ؛ فانهم سائرون الى عدو مقيم ، حامي الانفس والكرراع .

« وأقم بمن معك في كل جمعة يوما وليلة ، حتى تكون لهم راحة ، يحبون فيها أنفسهم ،

ويرتمون أسلحتهم وأمتعتهم ؛ ونح منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، ولا يرزأ أحد من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ، ابتليتم بالوفاء بها ، كما ابتلوا بالصبر عليها ؛ فما صبروا لكم فوالوهم خيراً ، ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح .

« وليكن عندك من العرب ، أو من أهل الرأي ، من تطمئن إلى نصحه وصدقه ؛ فإن السكذوب لا ينفعك خبره وإن صدقك في بعضه ، والغاش عين عليك ، وليس عيناً لك .

« وليكن منك عند دنوك من أرض العدو ، أن تكثر الطلائع ، وتبث السرايا بينك وبينهم ، وتنق للطلائع أهل الرأي والبأس من أصحابك ، وتخبر لهم سوابق الخيل ؛ واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد ، والصبر على الجلاء ؛ ولا تخص بها أحداً بهوى ، فتضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك .

« ولا تبغث طليعة ولا سرية في وجه تتخوف فيه غلبة أو ضيعة ونكابة ؛ فإذا عاينت العدو فاضم إليك قاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع اليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر غورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنعه بك » .

وأما تواضعه وحلمه ، ورأفته ورحمته ، فقد بلغ فيها عمر مبلغاً لا يداني ؛ وحسبنا في هذا ما روى عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال :

« بينما عمر يعس بالمدينة ليلاً ، إذ رأى بيتاً من الشعر لم يكن موجوداً بالأمس فدنا منه فسمع أنين امرأة ، ورأى رجلاً قاعداً ، فاقرب منه ، وسأله من الرجل ؟ فقال : رجل من أهل البادية ، جئت إلى أمير المؤمنين أصيب من فضله . قال عمر : فما هذا الأنين ؟ قال : امرأة تمخض (١) . فقال : هل عندها أحد ؟ قال : لا .

« فانطلق عمر إلى منزله فقال لا مرأته أم كلثوم ، بنت علي بن أبي طالب ، رضي الله عنه : هل لك في أجر ساقه الله إليك ؟ قالت : وما هو ؟ قال : امرأة تمخض ليس عندها أحد . قالت : إن شئت . قال : خذي ما يصلح للمرأة ، من الخرق والدهن ؛ وجيئيني ببرمة وشحم وحبوب ، وحمل عمر البرمة ، ومشى زوجها وراءه حتى انتهى إلى البيت ؛ فقال : ادخلي إلى المرأة ؛ وجاء عمر حتى قعد إلى الرجل ، وقال له : أوقد لي ناراً ، ففعل ، وأوقد تحت البرمة حتى أنضجها ، وولدت المرأة ؛ فقالت أم كلثوم : يا أمير المؤمنين ، بشر صاحبك بغلام ؛ فلما سمع الرجل يا أمير المؤمنين ارتعدت فرائصه ، وهاب عمر ، وجعل يتنحى ويبتعد عنه ؛ فقال له عمر : مكانك كما كنت ؛ وحمل عمر البرمة ووضعها على الباب ، وقال لا مرأته : أشبعيها

ففعلت ، ثم أخرجت البرمة ؛ فقام عمر وأخذها ووضعها بين يدي الرجل ، وقال له : كل فقد سهرت من الليل ، ففعل . وأمر عمر زوجه بالخروج ؛ وقال للرجل إذا كان غداً فأتنا نأمر بما يصلح لك ؛ فأتاه في الغد ، فأجازه وأعطاه .

وعن ابن عمر قال :

« قدمت رفقة من التجار في خلافة والدي ، فنزلوا المصلى ؛ فقال لي يا عبد الرحمن ، هل لك أن تحرهما الليلة من السراق ؟ فقلت : سمعاً وطاعة يا أمير المؤمنين ؛ فبئنا نحرسهم ، ونصلي ما كتب الله لنا ؛ فسمع عمر بكاء صبي ، فتوجه نحوه ، وقال لأمه : اتقي الله وأحسني إلى هذا الصبي .

« ثم نادى مكانه ، فسمع بكاءه ، فعاد إليها بمثل تلك المقالة ؛ ثم رجع إلى مكانه ، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فعاد إليها عمر ، وسألها عن شأن بكائه . فقالت له : يا هذا الرجل إنني أريد أن أفطمه ، وهو يبكي على الثدي . فقال لها : وكم له ؟ فقالت : كذا وكذا شهراً . فقال لها عمر : وبحك ، فما حملك على تمجيل فطامه ؟ قالت له : إن عمر أمر ألا يفرض لرضيع إلا بعد الفطام ، وأنا محتاجة ، فأحب أن أفطمه حتى يفرض له .

« فقال لها عمر : وبحك ، أَرْضِعِيهِ وَلَا تَعْجَلِيهِ بِالْفِطَامِ ؛ ثم صلى الفجر بالناس ، وما يستبين لهم قراءته من غلبة البكاء عليه ؛ فلما أتم الصلاة قال : يا بؤساً لعمر ، كم قتل من أطفال المسلمين ! ثم أمر منادياً ينادي :

« لَا تَعْجَلُوا صَبِيَانَكُمْ بِالْفِطَامِ ، قَبْلَ أَنْ يَسْتَكْمِلُوا مَدَّةَ الرِّضَاعِ ، فَإِنَّا مِنْ الْيَوْمِ سَنَفْرُضُ لِكُلِّ مَوْلُودٍ فِي الْإِسْلَامِ . »

وأما بره رضي الله تعالى عنه ، ووقاؤه بوعده ، فقد بلغ فيه الغاية القصوى ؛ ويكفيها في هذا الصدد موقفه مع الهرمزان لما أتى به أسيراً إليه ؛ فقبل له يا أمير المؤمنين هذا زعيم المعجم ، وصاحب رئيسهم . فقال له عمر : أعرض عليك الاسلام نصحا لك في طاعتك وآجلك . قال : يا أمير المؤمنين ، إنما أعتقد ما أنا عليه ، ولا أرغب في الاسلام ؛ فدعا عمر بالسيف ولما هم بقتله قال : يا أمير المؤمنين ، شرية من ماء أفضل من قتلى على ظمأ ؛ فأمر له بشرية من ماء ؛ فلما أخذها ، قال : أسألك الأمان حتى أشربها يا أمير المؤمنين ؛ فأعطاه عمر الأمان فرمى الهرمزان بها على الأرض وقال : الوفاء يا أمير المؤمنين نور أبلج .

فقال عمر رضي الله تعالى عنه صدقت ، ولك التوقف عنك ، والنظر في أمرك . وأمر برفع السيف عنه ، وعندئذ قال الهرمزان : الآن يا أمير المؤمنين أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن

بهذا عبده ورسوله ، وما جاء به حق من عنده ؛ فقال عمر : ويحك لقد أسلمت خير إسلام ، فما أخرك ؟ فقال : كرهت يا أمير المؤمنين أن يظن أنني أسلمت جزأ من السيف .

فقال عمر : إن نفارس عقولا ، استحقوا بها ما كانوا فيه من الملك ؛ ثم أمر به أن يبر ويكرم ؛ وكان بعد يشاوره في توجيه الجيوش لأهل فارس ، ويأخذ برأيه في مهام الأمور .

وفتح عمرو بن العاص مصر في خلافة عمر بأمر منه ، فأقامه حاكما عليها ؛ وذات يوم سابق ابن عمرو أحد المصريين ، فسبقه المصري ، فضربه ابن عمرو بالسوط ، وقال له : أنسبق ابن الأكرمين نسبا ؛ فأسرها المصري في نفسه ، ولم يبدها لعمرو أو أحد خاصته ، وسمع على أن يرفع الأمر لأمير المؤمنين عمر ، وكان يسمع عن عدالته وإنصافه . ولما حضر موسم الحج ذهب المصري إلى بلاد الحجاز ، وتصادف أن كان عمرو وولده حاجين في هذا العام ، وقد مضى على حادث السباق زمان طويل ، ولم يحجر لعمرو وولده على بال .

وما إن وقع نظر المصري على أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، حتى دنا منه ، وقص عليه القصص ، فرثى الغضب في وجهه ، وأمر بأحضار عمرو بن العاص وولده ، ولما مثلا بين يديه أعطى عمر درته للمصري وقال له : خذ هذه فاضرب بها ابن الأكرمين نسبا كما ضربك . فتباطأ المصري ، فألح عليه أمير المؤمنين ، حتى أخذها وضرب بها ابن عمرو بن العاص .

ثم التفت عمر إلى عمرو وابنه ، وقال يا عمرو ، متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ! وهنا نفى عمرو علمه بالمسألة ، واعتذر بأبلغ الاعتذار لأمير المؤمنين ، وانصرف هو وولده . وكان في هذا أكبر العظات ، وأعظم العبر ، لعمرو وأمناله من الولاة والحاكمين ، في أن يتمسكوا بأهداب العدالة في كل أمورهم ، ويتحروا منتهى الانصاف في جميع أعمالهم ؟

أحمد علي منصور

مبين علماء الأزهر الشريف

التكلم والصمت

تناظر بعض الأدباء في التكلم والصمت أيهما أفضل فكان أدبل ما قيل في هذا الموضوع هو : التكلم في الخير كله أفضل من الصمت ، والصمت في الشر كله أفضل من التكلم .

وقال عبد الله بن المبارك يرفي مالك بن أنس :

صمت إذا ما الصمت زين أهله وفتاق أبكار الكلام الختم
وعى ما وعى القرآن من كل حكمة ونيطت له الآداب بالاحم والدم